مجموعة قصصية مترجمة

غي دو موباسان

مدام باتست

الجزائر تقرأ

العنوان: مدام باتست

المؤلف: غي دو موباسان

ترجمة: مجموعة مترجمين

الجزائر تقرأ

8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى،
الجزائر العاصمة/ الجزائر

إيميل: NASHR.DZREADS@GMAIL.COM

فايسبوك / تويتر / سنابشات / يوتيوب/ تلغرام @dzreads

إنستغرام @dz_reads

للمهتمين بالحصول على كتبنا، يرجى طلبها من متجرنا
الإلكتروني، توصيل لغاية باب البيت

DZREADS.COM

يمكن الحصول على هذا
الكتاب وغيره من كتب
الجزائر تقرأ الأخرى
وماتشتهيه من كتب عبر
متجرنا الإلكتروني مع توصيل
لباب البيت

DZREADS.COM

الجزائر تقرأ

‹الجزائر تقرأ›

عن الكاتب

غي دو موباسان (1850– 1893) (بالفرنسية: Guy de Maupassant) هو كاتب وروائي فرنسي وأحد آباء القصة القصيرة الحديثة. وكان عضوا في ندوة إميل زولا.

ولد موباسان بقصر ميرونمسنل بنورماندیا، درس القانون والتحق بالجيش الفرنسي ثم عمل ككاتب في

البحرية. وقابل الكاتب جوستاف فلوبير عن طريق صلات أسرته ليصبح فيما بعد تلميذه المخلص، وقد قدم فلوبير لتلميذه نظرية للنجاح الأدبي تتكون من ثلاثة أجزاء : لاحظ، لاحظ، ثم لاحظ.

من أشهر قصصه : «كرة الشحم»، «بيير وجان»، بيل أمي ومن أهم قصصه القصيرة: «العقد»، «الآنسة فيفي» ، في الحقول .

و قد كان يقول : « إن هناك من الحقائق ما يساوي الناس عداً فكل منا يكون لنفسه صورة خادعة عن العالم، وهو خداع شعري أو عاطفي أو بهيج أو مقبض أو قذر أو كئيب حسبما تكون طبيعته.. كخداع الجمال وهو تقليد إنساني.. وخداع الدمامة وهو فكرة متغيرة.. وخداع النذالة الذي يستهوي الكثيرين. وكبار الفنانين هم أولئك الذين يستطيعون حمل الإنسانية على قبول انخداعاتهم الخاصة»

كان موباسان الرسام الأكبر للعبوس البشري ودوما ما كان يصاب بصداع وكان يتلوى ساعات من الألم حتى أصيب بالجنون سنة 1891 ومات في إحدى المصحات.

هدية رأس السنة

ترجمة: سعد رضوان

تناول جاك دي ريندال عشاءه ثم صرف خادمته وجلس يحرر بعض الرسائل فقد كانت عادته دائما في نهاية السنة المنصرفة أن يجلس وحيدا يكتب رسائل وهو يحلم متخيلا كل ما حدث له في السنة الماضية، فإذا ما تذكر صديقا خط له بضعة أسطر مهنئا إياه بالعام الجديد، ولهذا جلس الآن إلى مكتبه ثم فتح درجا وأخرج منه صورة لامرأة حدق فيها قليلا ثم قبّلها ووضعها بجوار الورقة وشرع يكتب:

(عزيزتي أيرين:

لا شك أنك تسلمت كتاب التهنئة الذي أرسلته إليك ولكني قد حبست نفسي في هذا المساء لأخبرك.. .)

وتوقفت الريشة عن الكتابة وقام جاك ليسير جيئة

وذهابا.

لقد حلّت به في العشرة أشهر الماضية مصيبة - ليست كمصائب الآخرين من المخاطرين أو الممثلين أو المتشردين- ولكنها امرأة أحبها واستولى عليها.

وجاك ليس صغيرا برغم أنه يبدو شابا، كما أنه ينظر إلى الحياة نظرة جدية مطلقة، لهذا أخذ يزن غرامه، كما كان يزن كل عام صداقاته القديمة والجديدة والأعمال التي مرت به وكذا الرجال الذين دخلوا حياته.

لقد خبت جذوة غرامه الأولى، ودقق مع نفسه كما يدقق التاجر عندما يضع حساباته فأخذ يسألها: ما هي ميوله نحوها وحاول أن يخمن ما ستكون عليه في المستقبل فوجد في نفسه أثرا عظيما وعميقا هو مزيج من الرغبة والشكر ومن آلاف من العواطف الأخرى التي تأتي عند انتهاء الربيع.

وأفاق على دق جرس الباب فتردد في أن يفتح، ثم قرر أن المرء في عيد رأس السنة يجب عليه أن يدخل الطارق أيا كانت شخصيته، لهذا أخذ شمعة واخترق الصالة ثم شد الترباس وأدار المفتاح...فرأى حبيبته واقفة أمامه

مستندة بيدها على الحائط وهي صفراء كالميتة فسألها:

(ماذا حدث؟)

فأجابت: هل أنت وحدك؟

فقال: نعم!!

فقالت: ولا؟

فقال: ولا خدم نعم!!

فقالت: ألست خارجا؟

فقال: لا!

فدخلت الشقة كالمعتادة على الدخول فيها ثم اتجهت إلى قاعة الاستقبال حيث ألقت بنفسها على إحدى الأرائك، وغطت وجهها بيديها وانفجرت في البكاء، فركع بجانبها وحاول أن يرفع يديها من على وجهها ليرى عينيها وهو يقول، (أيرين، أيرين ما الذي حدث؟ أتوسل إليك أن تخبريني عما جرى؟).

فأجابت وهي تتشنج، (لا أستطيع أن أظل هكذا)

ولم يفهم فسأل، (كيف؟)

– نعم، لا أستطيع أن أعيش هكذا.. في المنزل.. إنك لا تعلم.. إنني لم أخبرك.. إن هذا فضيع.. لا أستطيع أن استمر..

لقد قاسيت كثيرا.. لقد ضربني الآن.. .

– من؟ زوجك؟

– نعم زوجي

– آه.. .

ودهش كثيرا فلم يكن يظن أن زوجها وحش، فهو رجل مجتمع، ومن أحسن العائلات، وهو رجل أندية ومن المترددين على سباق الخيل وعلى المسرح، وهو معروف وله قدره في كل مكان لأخلاقه الحسنة وبديهته الحاضرة وذكائه ولتقبله النقد بصدر رحب هذا إلى جانب عنايته بزوجته واهتمامه برغباتها وبصحتها وملابسها وبكل ما يتعلق بها، وهو يمنحها الحرية التي تطلبها ويرحب برايندال باعتباره صديقا لزوجته ككل الأزواج المؤدبين.. إن رايندال لم يكن يظن أن العاطفة تخل هذا المنزل لذا دهش كثيرا لهذا الحديث غير متوقع وسأل (كيف حدث

هذا؟ أخبريني.. .)

وقصت أيرين عليه قصة طويلة.. قصة حياتها من يوم أن تزوجت.. وقصة الخلاف الذي بدأ بسيطا ثم اتسع هوته مع الأيام فكثر شجارهما إلى أن انفصلا وإن لم يظهرا شيئا لأحد، ثم تحول زوجها إلى وحشا مجنونا وهو الآن يغار عليها منه، واليوم قد ضربها لأجل ذلك بعد شجار عنيف.. .

وختمت قصتها مؤكدة، (إنني لن أعود، ويمكنك أن تفعل بي ما تريد)

وكان جاك قد جلس أمامها وقد تلاصقت ركبتاهما فأمسك يديها بيديه وقال: (يا عزيزتي، يا صديقتي العزيزة، إنك تقدمين على غلطة كبيرة.. إذا أردت أن تتركي زوجك فاجعليه هو المخطئ حتى يكون مركزك كامرأة لا غبار عليه في المستقبل)

فحدقت أيرين فيه بعيون قلقة وهي تسأله: (وبماذا تنصحني أن أفعل؟)

- اذهبي إلى منزلك حتى تحصلي على الانفصال أو

الطلاق من زوجك.

أليس في نصيحتك هذه شيء من الجبن؟

– كلا، فهذا هو الطريق الطبيعي لأن لك اسما ومركزا وأصدقاء وأقارب يجب أن تحافظي عليهم.

فقامت وقالت بحدة: (حسنا، لقد انتهى كل شيء. انتهى.. انتهى)

ثم وضعت يديها على كتف عشيقها ونظرت في عيني وهي تسأله: (هل تحبني؟)

فأجاب: طبعا

فقالت له: أهذا صحيح؟

فقال: طبعا

فقالت: إذن أبقيني عندك

فصرخ: (كيف أبقيك! في بيتي! هنا! لا بد أنك جننت! ستضيعين إلى الأبد.. لقد جننت..)

فقالت ببطء وخشونة كمن يزن كلماته: (اسمع يا جاك، لقد منعني من رؤيتك ثانية، كما لم أعد أستطع

أن أستمر في لعبة المقابلات السرية، فإما أن تبقيني وإما أن تفقدني)

فقال: في هذه الحالة يا حبيبتي تطلقي وسأتزوجك

فقال: نعم ستتزوجني بعد سنتين على الأقل، إن حبك لصبور.

فقال لها: اسمعي، فكري مرة أخرى. إنك إذا عشت هنا فسيأخذك غدا لأنك زوجته والقانون معه.

فقالت: إنني لم أسألك أن تبقيني هنا يا جاك، إني أريدك أن تأخذني بعيدا في أي مكان، لقد ظننت أنك أحببتني حبا كافيا لتفعل ذلك، ولكنني أخطأت...الوداع

واستدارت وأسرعت إلى الباب فأمسكها وهي على وشك الخروج وقال:

- اسمعي يا أيرين.. .

فجاهدت ألا تسمع شيئا آخر، وتمتمت وعيناها مليئتان بالدموع قائلة: (اتركني.. اتركني) ولكنه أجلسها بالقوة، ثم ركع إلى جوارها وحاول بالنصح تارة وبالنقاش أخرى أن ينبهها إلى خطئها وإلى خطورة خطتها مستعملا

كل طريقة ممكنة ليحملها على أن تترك هذا (الجنون) متوسلا إياها أن تستمع لنصيحته لكنها بقيت بكماء باردة.

فلما انتهى قالت، (هل أنت على استعداد لتركي اذهب الآن؟.. لا تمسكني فأنا لا أستطيع أن أقوم.)

فقال: اسمعي يا أيرين

فقالت: أتسمح فتتركني

فقال: أيرين هل صممت على هذا؟

فقالت: اتركني اذهب

فقال: حسنا إبقي...أنت تعلمين أنك هنا في منزلك، وغدا سنذهب بعيدا.

فأصرت على أن يتركها تقوم وقالت في نغمة خافتة، (كلا لقد تأخرت، فأنا لا أريد تضحية.)

فقال: إبقي، لقد فعلت كل ما هو واجب علي أن أفعل، وقلت كل ما وجب علي قوله، فليس علي أية مسئولية حيالك بعد ذلك وضميري الآن مستريح، وما عليك إلا أن تخبريني برغبتك فأطيع فجلست ثانية ونظرت إليه

وسألته بهدوء، (حسنا، اشرح لنفسك.. .)

فقال: ماذا؟ ماذا تريد أن أشرح لك؟

فقالت: كل شيء، كل ما فكرت فيه حتى غيرت رأيك هكذا وعلي أن أقرر بعد ذلك.

فقال: إنني لم أفكر بتاتا...إنما كان من واجبي أن أعرفك أن ما انتويت جنون.. فلما لم تحيدي عن رأيك رأيت أن أشاركك جنونك.

فقالت: أنه ليس من طبعي أن يغير الإنسان رأيه هكذا سريعا.

فقال: اسمعي يا عزيزتي، يا صديقتي العزيزة، إنها ليست مسألة تضحية.. ففي اليوم الذي عرفت فيه أنني أحبك قلت لنفسي – كما لا شك أن كل محب يجب أن يقول هذا لنفسه في نفس الظروف – إن الرجل الذي يحب امرأة ويحاول أن يجعلها له عليه واجبات لا لنفسه فقط بل للمرأة التي يحبها، وأنا أعني بلا شك المرأة التي هي مثلك وليست المرأة السهلة...إن للزوج فائدة اجتماعية وقانونية كبيرة ولكنه في نظري ليس له إلا فائدة روحية.. روحية

بسيطة حينما ينظر المرء إلى الإحساس الذي أخذت هذه العلاقة مكانها على مقتضاه...لهذا فإن المرأة المربوطة بهذا الحبل لا تحب زوجها ولا يمكنها أن تحبه ستقابل شخصا تحبه وتهبه نفسها، فإذا أحتل رجل أعزب مكانة العشيق فهذه العلاقة تتطلب تبعات كثيرة أعظم من قولة نعم أمام القس، فإذا كان الاثنان شريفين فسوف يكون ربطهما أقوى وأمتن من ذلك الذي يعقد في الكنيسة... إن المرأة تضحي كل شيء، وهي تعرف هذا، فهي تعطي قلبها وجسمها وروحها وشرفها وحياتها لأنها تعرض نفسها للخطر من قتل زوجها لها ومن نبذ المجتمع إياها وما إلى ذلك مما يجعلها جديرة بالاحترام في عين حبيبها الذي يجب عليه أن يعد العدة لمواجهة كل شيء يحدث... وليس لدي شيء آخر أضيفه غير ما قلت، لقد تكلمت أول الأمر كعاقل من واجبه تنبيهك ولكني الآن رجل فقط.. رجل يحبك وينتظر أمرك..)

وبحركة مغرية أقفلت له فمه بشفتيها ثم همست:

– يا حبيبي، لم يكن هذا صحيحا، فإن شيئا من ذلك لم يحدث وزوجي لم يشك في شيء لكنني أردت أن أعرف

ماذا تفعل.. لقد أردت أن آخذ هدية رأس السنة...هدية أخرى غير العقد الذي أرسلته إلي.. وهي حبك، ولقد أعطيتني إياه، فشكرا...وشكرا...أوه يا ربي! ما أسعدني!

الجزائر تقرأ

الإشارة!

ترجمة: يوسف يعقوب حداد

كان المضجع الوثير، الناعم، يضم مدام مارجيونسي دي ريندون في كثير من الوله والحب! وكانت المطلقة الحسناء: قد فتحت عينيها على صخب وضجيج ينتهيان إليها في غرفة الاستقبال، فأصغت بقليل في الانتباه، فإذا هي تميز صوت صديقها البارونة الصغيرة دي جرانجيريه مشتبكا في نقاش حاد مع الخادمة، تلك تريد مقابلة صديقتها لأمر خطير، هام، وهذه تأبى عليها مقابلة سيدتها، وإزعاجها في مثل هذه الساعة المبكرة! وعندئذ تسللت من فراشها، وأخرجت رأسها اللطيف، المكلل بثروة من الذهب الخالص، وهتفت متسائلة:

– ما بك يا عزيزتي.... لم قدمت في مثل هذه الساعة المبكرة؟ إنها لم تبلغ التاسعة بعد؟!

وأجابت البارونة الصغيرة الشاحبة الوجه الذابلة العينين من الانفعال، المرتجفة غضباً وانزعاجاً:

- أريد أن أحدثك يا عزيزتي عن مسألة خطيرة...لقد وقع لي ما لا يتصوره العقل!

- تعالي يا عزيزتي...تعالي.

ودخلت البارونة المخدع وراء صديقتها.. وتبادلتا العناق والقبل. وعادت مارجيونسي إلى مضجعها الوثير. بينما كانت الخادمة تزيح السجف الثقيلة عن النوافذ، ليتجدد في الغرفة الهواء، ويدخل إليها النور...ولما انصرفت الخادمة، قالت مدام رليندون: والآن يا عزيزتي... هات ما عندك من حدث!

وانفجرت مدام جرانجيريه باكية.. وانهمرت من عيناها الدموع.. هذه الدموع التي لو ترقرقت في عيون المرأة لزادتها فتنة على فتنة، وحسنا على حسن! ولم تمد منديلها إلى عينها لتجفف دموعها، خوفا عليهما من الاحمرار...وقالت:

- إن ما حدث لي يا عزيزتي فظيع...فظيع، لم تغمض

له عيناي طول الليل.. حتى ولا دقيقة.. أتسمعين؟.. ولا دقيقة آه.. ضعي يديك هنا على قلبي. رباه! إنه يخف ويضطرب! وأخذت يد صديقتها، ووضعتها على موضع القلب من صدرها هذا الصدر الجميل، الذي يفتن ويغرى.. ولكن قلبها الآن، كان حقا شديد الاضطراب والخفقان. ثم قالت

– حدث ذلك نهار الأمس...كانت الساعة الرابعة...أو النصف بعد الرابعة، لا أتذكر تماما. أنت تعرفين منزلي، وتعرفين غرفة الاستقبال منه، حيث تعودت أن أجلس، وانفرج بمراقبة الناس. وهم يروحون ويجيئون في شارع لازار. وبالأمس كنت أجلس في الفراندة على كرسي منخفض، وكانت النافذة مفتوحة، وأنا خالية البال من كل ما يشغل البال، ويبلبل الخاطر، أوه.. لعلك تذكرين كم كان جو الأمس لطيفا، والمناخ معتدلا.

وفجأة، رأيت امرأة ترتكز على مرفقيها، في نافذة البيت المقابل...وكانت ترتدي المايوه.. لباس البحر الجذاب.

لم يسبق لي أن رأيت هذه المرأة ذات الثوب الأحمر الخليع. ولكنني عرفتها جيداً لأول نظرة. كانت امرأة من

ذلك الصنف الذي يتجر بنفسه!!

ووجدت نفسي أتابع حركاتها. كانت تنظر إلى الرجال، والرجال يبادلونها النظرات، وكانت تدعوهم إليها: ألا تشرفنا يا سنيور؟ فكان بعضهم يرد عليها: متأسف... الوقت ضيق!

- في فرصة أخرى.

- لا...ليس الآن

وكان بعضهم يردعها، ويعنفها: اخسئي.... حقيرة!

لو تستطيعين يا عزيزتي، أن تتصوري، كم كان عملها هذا مثيرا للضحك! وفجأة رأيتها تغلق النافذة...لقد وقع في صنارتها واحد من المغفلين! ووجدت لذة كبيرة في مراقبة هذه المرأة الوضعية، وهي تقوم بعملها العجيب! وأحسست برغبة ملحة تدفعني لتقليدها...أتكون هذه الحمقاء، أقدر مني على اجتذاب الرجال؟...هيهات!!

وقلدت حركاتها، وغمزاتها، وإذا أنا أوديها أحسن منها بكثير...وعندئذ اتخذت مكاني من النافذة.

وانتصرت عليها...وجذبت نحو كل الرجال من كل

صنف، بعضهم أجمل من زوجي...بل أجمل من زوجك... أقصد آخر أزواجك.. إيه يا عزيزتي...نحن النساء لنا بعض عقول القردة المقلدة...هكذا قال لي أحد العارفين بالنفس...ألا نحب تقليد بعضنا بعضاً؟!

قلت لنفسي: لأجرب مرة واحدة...لمجرد التغيير...ترى، ما الذي سيحدث لي؟...لا شئ على كل حال...وسأنساها!

وبحثت عن رجل...رجل جميل.... أجمل من كل الرجال. وفجأة رأيت النموذج الكامل للرجل الذي أردته.

رشقته بنظرة ساحرة، وابتسمت له بطريقة خاصة، ففهم إشارتي، وإذا هو يتجه نحو الباب الكبير!!

وجننت...وتملكني خوف شديد، فإذا هو يتحدث مع الخادم يوسف.. يوسف المخلص لزوجي، فسيظن أنني على صلة بهذا الرجل من قبل! . ماذا أستطيع أن أفعل يا عزيزتي...ماذا أفعل إذا طرق الباب؟

فكرت في أن أقابله بنفسي، وأخبره بأنه مخطئ، وأرجوه أن ينصرف...لعله يعطف على امرأة...ضعيفة، مسكينة:

وذهبت إليه أقول:

- انصرف بربك يا سنيور...أنصرف من هنا...أنت مخطئ يا سنيور.... أشفق علي يا سيدي!

- صباح الخير يا آنسة...لم كل هذا الدلال؟...فلست اجهل قصصكن...ستقولين إنك زوجة لرجل غيور وإنك معي لفي خطر شديد، وستطبين أربعين فرنكاً بدلا من عشرين.. ولكن لا بأس...سأدفعها لك، إذا أفسحت لي الطريق.

ولكنه لم ينتظر جوابي...بل دفعني إلى غرفة الاستقبال، وظل يتفحصها في دهشة، وقال:

- ما أجمل هذه الغرفة...لا شك أنك موفقة في عملك، وتكسبين كثيراً، وتوسلت إليه

- أرجو يا سنيور، تفضل بالانصراف.. أن زوجي سيكون هنا بعد دقائق...أقسم لك انك مخطئ.

فأجابني في برود شديد: زوجك؟! . سأمنحه خمسة فرنكات، يشرب بها كأسا من النبيذ في الحانة المقابلة.

ثم وقعت عيناه على صورة زوجي راؤول، فقال:

- أهذا هو زوجك؟

- نعم

- أوه.. رجل لا بأس به، ومن هذه؟.. واحدة من صديقاتك! كانت هذه صورتك - نعم...واحدة من صديقاتي!

- جميلة.. لعلك تقدمينها إلي

- في فرصة أخرى.

وعندئذ دقت الساعة خمس دقات.... لقد حان موعد قدوم زوجي إلى البيت...رباه...ماذا يحدث لو جاء راؤول ورأى عندي هذا الرجل؟

وفكرت في أن أحسن طريق للتخلص من هذا أن...أن أرضيه بأسرع وقت، وأصرفه عني. فهمت ما أعني يا عزيزتي هل فهمت ماذا حدث؟!!

وضحكت مدام ريندون.. واهتز السرير تحتها لشدة ضحكها، ثم قالت والدموع تترقرق في مآقيها:

- ولكن.. أكان منظره جذابا حقاً؟

- كان رائعاً...في غاية الروعة.

– من حسن حظك...ولكن، إذا كان رائعا كما تقولين، فلماذا جئت تشتكين؟!

– لأنه...لأنه سيعود ثانية، في نفس الوقت وأنا شديدة الخوف، فماذا أفعل لو نفذ وعده، وجاء مرة أخرى؟!!

– دعيه يعود

فتملكت المسكينة دهشة عظيمة، وتساءلت:

– ماذا؟ ماذا تقولين؟.. كيف أدعه يعود؟

– هذا شئ بسيط...اذهبي إلى مدير البوليس، وأخبريه بما حدث، وقولي له أن هذا الرجل يضايقك منذ مدة طويلة، وعندئذ سيبعث إليه ببعض رجاله، ويقبضون عليه متلبسا بالجريمة! – ولكن يا عزيزتي...ربما اعترف.

– من يصدقه...أنت سيدة معروفة في البلد.

لا...لا أستطيع.

– أن لم تخبري البوليس...فسيعود إليك كل يوم!

– طيب.... والفرنكات التي تركها لي؟...ماذا أصنع بها؟

وبعد أن فكرت مدام ريندون قليلاً، قالت ضاحكة:

- عزيزتي.. يجب أن تخلدي هذه الحادثة في هدية صغيرة لزوجك العزيز راؤول.. نعم، هذه أحسن فكرة!!!

الجزائر تقرأ

مدام باتست

ترجمة: محمد فتحي عبد الوهاب

عندما دخلت استراحة المسافرين بمحطة لوبان؛ صوبت أولى نظراتّي إلى الساعة، فوجدت أنه لا يزال أمامي متسع من الوقت حتى يصل قطار باريس السريع. وشعرت فجأة بالإجهاد كأني قُطّعت عشرة فراسخ سيراً على الأقدام. نظرت حولي لعلي أرى على الجدران ما أقتل به الوقت فلم أجد شيئاً فخرجت ووقفت أمام مدخل المحطة وأنا أقلب الفكر فيما يرفه عن نفسي إلى أن يصل القطار.

كان الطريق أمامي قد نمت على جانبيه أشجار الفتنة بين صفين من مختلف المنازل الصغيرة، وقد ارتفع الطريق صعداً؛ فبدت نهايته كأنها حديقة بعيدة.

وكان مقفراً إلا من هرة تتسكع في الطريق في خفة، وكلب يسرع في مشيته يشتم قوائم الأشجار باحثاً عن

فضلات الطعام.. .

واجتاحتني موجة حزينة من الشعور بالخيبة. ما العمل.. .؟ ما العمل؟ وجدت أنه لا مفر لي من الانتظار الممل بمقهى المحطة الصغير. وتصورت نفسي جالساً وأمامي قدح من الخمر لم تمسه شفتاي، وجريدة محلية عافت نفسي قراءتها، عند ما بدت أمامي جنازة قادمة من شارع جانبري لتخترق ذلك الطريق أمامي.

شعرت عندئذ أن منظر مركبة الموتى قد فرج عن نفسي.

لقد ربحت على الأقل عشر دقائق من فراغي الطويل. وتضاعفت فجأة انتباهي عند ما شاهدت الميت لا يشيعه سوى ثمانية رجال كان أحدهم يبكي في حرارة والآخرون يثرثرون ويتحدثون أثناء سيرهم. ولم يشترك في الجنازة أي قس. ففكرت وأنا أخاطب نفسي (هاهوذا دفن مدني) ولكن سنح لي خاطر: ما بال المئات من ذوي الأفكار الحرة الذين يعيشون في البلدة لا يشتركون في إبداء شعورهم في مثل هذه المناسبة؟ إن سير هذه القافلة السريع قد دل على أنهم سيدفنون الفقيد دون احتفال ديني.

ودفع بي فضول إلى افتراض فرض معقد بعيد. ولكن؛

بينما كانت المركبة تمر أمامي، إذ بفكرة تنبعث في خاطري هي أن أشيع المركبة مع هؤلاء المشيعين وبذلك أشغل من وقتي الضائع ساعة على الأقل؛ فسرت وأنا أتظاهر بالحزن خلف الآخرين.

والتفت آخر اثنين منهم إلي في دهشة، ثم تحدثا في صوت خافت. فاعتقدت أنهما يتساءلان عن سبب وجودي وأنا الغريب عن هذه البلدة. ثم استتارا الاثنين اللذين أمامهما؛ فالتفتا ناحيتي يتطلعان إليَّ في فضول. فضايقني ذلك الأمر، وعزمت على أن أضع حداً له؛ فاقتربت منهم، وقلت بعد أن بادلتهم التحية: (أرجو المعذرة أيها السادة إذا كنت قد قطعت عليكم حديثاً، ولكني عندما شاهدت الجنازة دفعت نفسي إلى اللحاق بها دون سابق معرفة بالفقيد الذي تشيعونه)

فرد أحدهم قائلا (إنها فقيدة).

فدهشت، وسألت: (إذن هي جنازة مدنية، أليس كذلك؟)

فأجاب آخر يشرح لي قليلا: (نعم، ولا. إن القس رفض أن ندخل بها الكنيسة).

فبدرت مني آهة من الدهشة لأني لم أفهم ما يعني.

فصرح قائلاً في صوت خافت: (إنها قصة محزنة. إن هذه الشابة قد انتحرت. وهذا هو السبب في عجزنا عن إجراء الطقوس الدينية قبل دفنها. إن من تراه يبكي هنا هو زوجها)

فقلت بعد تردد (إنك لتدهشني وتثير فضولي. هل أنتهك سرا إذا ما رجوت أن تقص على هذه القصة؟ إذا كنت تشعر بأن ذلك فضولا مني فاعتبر كلامي كأن لم يكن).

فأخذ الرجل بذراعي دون كلفة وقال: (كلا.. ليس ما يمنع أن أسرد عليك وقائعها. فلنبطء في السير قليلا حتى نكون آخر المشيعين، ولدينا من الوقت ما يكفي للسرد قبل أن نصل إلى المقبرة عند الأشجار التي تشاهدها هناك.)

ثم طفق يحدثني قائلا (تصور أن هذه المرأة الشابة السيدة بول هامون كانت ابنة أحد التجار الأثرياء السيد فونتانلي. وكان قد حدث لها حادث رهيب وهي في سن الحادية عشرة. لقد اعتدى عليها خادم، وكادت تموت

خزيا وعارا من ذلك الحادث الأليم. وأظهرت المحاكمة الرهيبة أن تلك المسكينة كانت ضحية ذلك الوحش مدة ثلاثة أشهر. فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ونمت الفتاة الصغيرة وقد تلطخت بالعار، منبوذة، وحيدة، بلا رفيقات ولا عطف وأصبحت أمام الأهلين كأنها مسخ أو أعجوبة من الأعاجيب. كانوا يتحدثون عنها في همس، ويتكلمون عن (الصغيرة فونتانل) في غمز، ويديرون ظهورهم عند رؤيتهم لها في الطريق. حتى المربيات، كان أكثرهن يأبين الالتحاق بخدمتها. وكانت العائلات تبتعد عنها كأنها وباء تخشى أن تنشره الفتاة فيسري إلى من بالقرب منها.

أي شفقة تعتريك لو كنت قد شاهدت هذ الطفلة المسكينة وهي تراقب الأولاد يمرحون ويلعبون في الساحة بعد ظهر كل يوم. كانت تجلس وحيدة أو تقف بجانب خادمتها تشاهد حزينة ما يحدث دون أن تشترك مع الأولاد في لهوهم. وعندما كانت تنتابها نزوة لا تقاوم من الإغراء، كانت تتقدم في خجل وخوف وتدخل في زمرتهم في خطوات مترددة، وكأنها شاعرة بعارها. وسرعان

ما تنهض الأمهات والعمات والمربيات من مقاعدهن ويأخذن بأيدي الأولاد ويجذبنهم بشدة بعيدا عنها، وتبقى الصغيرة فونتانل وحيدة، والهة القلب، مذهولة، ثم تنفجر باكية وقد امتلأ قلبها شجنا، وأخيراً تسرع إليها خادمتها تخفي وجهها المخضل بالدمع في مئزرها.

وكبرت الفتاة وازدادت حالتها سوءا، وكان الناس يحولون بينها وبين مثيلاتها من الفتيات كما لو كانت مصابة بالطاعون. ولم يكن لدى الفتاة شيء تتعلمه، لا شيء البتة. لقد قُطفت الثمرة المحرمة قبل أوانها وامتلأ جسمها بالأنوثة قبل أن يحين ذلك الوقت الذي تحاول فيه كل فتاة أن تقرأ المستقبل المجهول في وجه الرجل ليلة الزفاف.

كانت كلما عبرت الطريق بصحبة مربيتها، ينظر إليها الناس وهم في خشية منها، فتغض الطرف شاعرة بالعار الذي يثقل كاهلها. وكانت الفتيات الساذجات الغريرات يتغامزن عند رؤيتها في خفية، ويحولن أنظارهن عنها كلما التقت أعينهن بعينيها.

وكانوا قليلا ما يحيونها، ويتظاهرون بعدم رؤيتهم

لها. حتى الصبية كانوا ينادونها (مدام باتست) اسم ذلك الخادم الذي اعتدى على عفافها.

كانوا لا يعرفون مقدار العذاب الذي تعانيه هذه الفتاة. فقد كانت قليلة الكلام لا تبتسم مطلقاً. حتى أهلها، كانوا يضيقون بها كأنهم يحقدون عليها من جراء تلك الهفوة الشنعاء. إن الرجل الفاضل لا يمد يده بمحض إرادته إلى المجرم الذي أُفرج عنه، ولن كان ابنه، أليس كذلك؟ وعامل السيد والسيدة فونتانل ابنتهما كأنها من طريدات السجون.

كانت جميلة، شاحبة اللون، ذات قامة هيفاء، وسمت وقور. ولو لم يكن ذلك الحادث لكنت من المعجبين بها.

ولما قدم الحاكم إلى البلدة بعد غياب ثمانية عشر شهراً استحضر معه سكرتيراً خاصاً، وهو شاب غريب الأطوار كان يعيش في الحي اللاتيني بباريس. فرأى الآنسة فونتانل وأحبها. وقصوا عليه قصتها فلم يأبه بها؛ بل قال إن ذلك يضمن مستقبلها.

وغازلها ثم طلب يدها وتزوجها. وكان لا يخجل من التزاور معها؛ فكان البعض يرد الزيارة، والبعض يحجم

عنها.

وسار الحادث مع الزمن في طريق النسيان، وأخذت السيدة مقامها في المجتمع. وكانت تعبد زوجها كما لو كان إلهاً. أم يرد إليها شرفها؟ ألم يقاوم المجتمع ويكافح الناس من أجلها، ويواجه الإهانات بسببها؟ لقد كان يقوم بدوره في شجاعة قل أن تجدها في الرجال.

وحملت فتفتحت أمامها الأبواب كأنما تطهرت تماماً بالأمومة، إن ذلك لشيء مضحك. ولكنها الحياة!

وسار كل شيء في طريقه العادي، حتى حانت حفلة البلدة السنوية، وأقبل الحاكم يحيط به سكرتيره وحواشيه وأصحاب الجاه لتوزيع الجوائز على المتسابقين، وأنت تعرف بالطبع ما يحدث من خلاف ومنافسة وغيرة بين الناس في مثل هذه الحفلات، وما أكثر أن يفقد البعض رشدهم. كان كل سيدات البلدة قد حضرن لمشاهدة هذه الحفلة. وتقدم رئيس فرة الموسيقى لبلدة دي مورميون؛ فقلده بول هامون وساماً من الدرجة الثانية. فقذف رئيس الفرقة بالوسام في وجه السكرتير صائحاً (احتفظ به لباتست - فأنت مدين له ولي بوسامين من الدرجة الأولى).

كان هناك حشد كبير من الناس فسرعان ما ضجوا بالضحك كان جمهوراً خشناً غير مهذب، واتجهت كل الأنظار صوب السيدة المسكينة. أواه يا سيدي، ألم تشاهد قط امرأة جنت؟ لقد كنت بين الحاضرين في تلك الحفلة، وشاهدتها وهي تحاول النهوض فتسقط على مقعدها ثلاث مرات متتالية، كأنها تريد الهرب فيقيدها عجزها عن اختراق هذه الجموع المتكاثرة المحيطة بها. وسمعت صوتاً من جهة ما يصيح: (أهلا...أهلا...بمدام باتست) فضج بعض الناس بالضحك واشمأز البعض الآخر. وهبت عاصفة من الضوضاء والهرج، واهتزت الرؤوس وترددت الأصوات، وتطلعت الأنظار تشاهد وجه تلك التعسة، وحمل الرجال زوجاتهم على أذرعتهم ليشاهدنها، وتساءل الناس أيهن؟ أيه تلك التي ترتدي ثوباً أزرق اللون؟ وكان الأولاد يصيحون صياح الديكة، وانفجر القوم يضحكون ضحكات عالية، ولكنها لم تتحرك من مكانها، كانت جالسة في ذهول على المقعد الوثير كأنها ساعة خصصت لهذه الحفلة تتطلع إليها الأنظار، ولم تستطع حراكا، ولم تتمكن من إخفاء وجهها. كانت جفونها تنطبق ثم تنفتح كأن هناك ضوءا

باهراً يحرق عينيها. ولهثت كأنها جواد يصعد مرتفعا من الأرض. كان كل هذا يمزق قلبي تمزيقاً.

وأخذ السيد هامون برقبة رئيس فرقة الموسيقى ذلك الشخص الوقح وألقاه على الأرض وسط الضوضاء الهائلة. وتوقف الاحتفال، وبعد ساعة كان السيد هامون في طريقه إلى الدار برفقة زوجه. كانت مرتجفة الجسد صامتة لم تفه بكلمة واحدة. وفجأة تسلقت حاجز الجسر دون أن يتمكن زوجها من منعها، ثم ألقت بنفسها في النهر.

واستغرق إخراجها ساعتين من ذلك الماء العميق. كانت بالطبع قد فارقت الحياة).

صمت المتحدث لحظة ثم عاد بعدها يقول (ربما كان من الأفضل لها أن تصل إلى هذه النهاية المؤلمة. فإن هناك أشياء تحدث فلا يمكن محوها. وهأنذا عرفت الآن لماذا رفض القس أن يفتتح أبواب الكنيسة لها. فإنه لو كان الدفن دينياً لشيع الجنازة كل أهل المدينة. ولكن ذلك الانتحار وتلك القصة الأليمة حملت العائلات على الاحجام عن تشييع الجنازة. ولذلك كان من الصعب أن يشيعها

القس.

وعبرنا باب المقبرة؛ وانتظرت في تأثر بالغ نزول الناووس في القبر لأقترب من ذلك الشاب المسكين الذي كان يبكي وينتحب. وشددت على يده معزيا، فنظر إليَّ في دهشة من خلال دموعه ثم تمتم قائلاً: (شكراً يا سيدي، شكراً).

ولم آسف أبداً على اشتراكي في تشييع هذه الجنازة.

الجزائر تقرأ

الشارب

ترجمة: إيزاك شموس

عزيزتي لوسيا:

لا جديد عندنا، نحن نقضي أوقاتنا في غرفة الاستقبال، نتلهى بالنظر إلى المطر وهو يتساقط، وحيث أنه يتعذر الخروج في هذه الأيام العابسة، فإننا نتسلى بتمثيل رواية هزلية، ولكن...ما أسخف الروايات التي أعدت لتمثل في الدور، كما وردت في القائمة الحالية!؟

إن كل ما فيها سمج، متكلف، غليظ! ولا يقل فعل النكات التي تشتمل عليها عن فعل القنابل. إنها تحطم كل شيء مع إنه ليس فيها أدنى أثر لا للذكاء ولا للدعابة ولا للباقة!

حقاً إن رجال الأدب لا يعرفون شيئاً عن العالم! إنهم ليجهلون كل الجهل كيف نفكر وكيف نتكلم! فإذا أجزنا

لهم أن يمقتوا عاداتنا ومواضعاتنا فلا يسعنا أن نجيز لهم أن يجهلوها. وهم إذا أرادوا التدليل على براعتهم وحذقهم لعبوا بالكلمات لعباً غريباً من شأنه أن يزيل غضون ثكنة بأسرها! وإذا أرادوا بعث السرور لجئوا إلى طائفة من النكات...لا أشك لحظة أنهم إنما جمعوها من الشارع...من تلك الحانات التي يدعونها (حانات الفنانين)، حيث تتكرر منذ خمسين عاماً ذات النكات، فتناقلها الطلاب ويتوارثونها.. .

إذن نحن نتسلى بتمثيل رواية هزلية، ولما كان تمثيلها يقتضي وجود سيدتين، فقد قبل زوجي أن يقوم بدور الخادم، ولذلك اضطر أن يحلق شاربه. وليس في استطاعتك يا عزيزتي (لوسيا) أن تتصوري مقدار التغير الذي طرأ على زوجي بعد حلق شاربه...إنني لا أكاد أعرف...لا ليلاً ولا نهاراً!

وإذا لم يترك شاربه ينمو من جديد، فالمرجح أنني لا أتردد في خيانته لشدة ما يبدو لي دميما بدون شارب!

والحقيقة أن الرجل لا يعد رجلاً بدون شارب! أنا لا أحب اللحية كثيراً لأنها تكاد تدل على الإهمال دائماً،

أما الشارب...أوه الشارب! فإن وجه الرجل لا يستطيع الاستغناء عنه أبداً!

كلا! لا يمكنك أن تتصوري قط إلى أي درجة تبدو هذه الفرشاة الصغيرة من الشعر ضرورية للنظر...ولاسيما للعلاقات الزوجية!

ولقد عرضت لي في هذا الموضوع طائفة من الخواطر لا أجرؤ على التعبير عنها كتابة، برغم استعدادي التام لاطلاعك عليه شفاهياً بصوت خافض وبسرور وافر

إلا أنه قد يتعذر أحياناً العثور على كلمات تصلح للتعبير عن بعض الأشياء؛ وأكثر هذه الكلمات التي لا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها تتخذ على القرطاس صوراً فضيةً لا أقوى معها على أن أخط شيئاً منها...ثم إن الموضوع نفسه من الدقة والصعوبة بحيث يتطلب لباقة شديدة لمعالجته بدون التعرض لخطر

وأخيراً ماذا يمكنني أن أفعل إذا كنت لا أقدر أن أجعلك تفهميننني جيداً؟

ولكن اجتهدي يا عزيزتي أن تقرئي السطور!

أجل. عندما أبصرت زوجي بدون شارب أيقنت للحال أنه يتعذر علي أن أحب ممثلاً أو مبشراً...حتى وإن كان الأب (ديدون) نفسه أوفر المبشرين جمالاً وأشدهم إغراء إذا كان حليق الشارب!

وعندما خلوت بزوجي كانت المصيبة أعظم! أوه يا عزيزتي لوسيا لا تسمحي قط لرجل حليق الشارب أن يقبلك إذ لا يكون لقبلاته أدنى طعم! مطلقاً! مطلقاً! فليس في قبلاته ذلك الفلفل...نعم إن الشارب هو فلفل القبلات وبهارها!

تخيلي رقاً جافاً أو رطباً يلامس خدك: هذه هي قبلة الرجل الذي يحلق شاربه...إنها بدون شك لا تساوي شيئاً!

وقد يخطر لك أن تسألينني: من أين يستمد الشارب إغراءه إذن؟ وهل تحسبينني أعرف ذلك؟

أول كل شيء الشارب دغدغة لذيذة جداً...تحسينه قبل الثغر، فيبعث في جسمك كله من قمة رأسك إلى أخمص قدميك رعشات سحرية تجتاحك كالتيار الكهربائي... فالشارب هو الذي يداعب البشرة، وهو الذي يجعلها

ترتعش وتختلج، وهو الذي يبعث في الأعصاب ذلك التنميل العذب الذي يجعلك تتنهدين (آه)، كما تفعلين حين يهز جسمك برد قارس!

وعلى النحر! هل اتفق لك أن أحسست بالشارب يدغدغ نحرك؟ إن دغدغته هذه لتسكرك وتشنج أعصابك، وإنما لتنساب في ظهرك إلى أن تبلغ أطرافك، فتتلوين وتحركين أكتافك حركة خاصة، وتلقين رأسك إلقاءة خاصة أيضاً، وترغبين رغبة قوية في الفرار والبقاء معاً...إن قبلة كهذه لتستحق العبادة لشدة ما تبعثه من اللذة وما تحدثه من إثارة وتهيج

وعدا ذلك...حقاً إني لا أجرؤ على...إن الرجل الذي يحب زوجه يعرف كيف وأين يجد مواضع مختبئة ليدفن فيها قبلاته، مواضع لا تخطر للمرأة حتى عندما تخلو بنفسها...وهذه القبلات إذا لم يتقدمها شارب لا يبقى لها طعم، بل أنها لتغدو مخالفة للذوق والأدب!

ولك أن تفسري ذلك بما تشائين؛ أما أنا فأفسره هكذا: الثغر بدون شارب كالجسم بدون ثياب! نعم، لا بد من الثياب، القليل منها إذا شئت، ولكن لا بد من بعضها

والخالق قد ستر بالشعر جميع مواضع الجسد التي يدفن الحب فيها؛ فالثغر الحليق إنما يبدو كينبوع عذب وسط غابة اقتلعت أشجارها

وهذا يذكرني بجملة لأحد رجال السياسة ما زالت تترد في ذاكرتي منذ ثلاثة أشهر؛ فقد قرأ على زوجي ذات مساء في إحدى الجرائد خطبة غريبة لوزير الزراعة السيد (ميلين)؛ ولست أدري إذا كان لا يزال إلى الآن في وظيفته أم حل غيره محله

لم أكن أستمع لزوجي، ولكن هذا الاسم (ميلين) لفت انتباهي؛ قد ذكرني - ولست أدري لماذا - بالحياة في يوهيميا، وخيل إلي أن الحديث يدور على إحدى العاملات المتأنقات؛ فأصخت بسمعي، وهكذا استطاعت بعض الكلمات أن تجد سبيلاً إلى رأسي

والسيد (ميلين) أدلى إلى أهالي إميان - فيما أظن - بالتصريح التالي الذي ما فتئت أبحث عن معناه: لا وطنية بدون زراعة! ولم أهتد إلى معنى هذه الجملة إلا في هذه اللحظة...وأنا كذلك أصرح بدوري: لا حب بدون شارب!

وقد يبدو ذلك مضحكا، حين يقال على هذه الصورة،

أليس كذلك؟ لا حب بدون شارب! لا وطنية بدون زراعة.. .! لقد كان السيد (ميلين) مصيباً في قوله هذا الذي لم أدرك معناه قبل هذه اللحظة.. .

والشارب ضروري من جهة أخرى، فهو الذي يحدد صورة الوجه فيجعله لطيفاً أو رقيقاً أو قاسياً أو مضحكا أو جريئاً

إن الرجل الذي يرخي لحيته إرخاءً تاماً، ويترك جميع شعره (يا لها من كلمة قبيحة!) على خديه، لا يمكن أن يكون في وجهه شيء من الرقة، لأن الشعر يخفي الملامح، وشكل الذقن والفكين يدل على أشياء كثيرة، ولكن قل من يفهمها

أما الرجل الذي يترك شاربه، فإنه يحتفظ بهيئته الحقيقية وبرقته في وقت واحد، وللشوارب أشكال متعددة تختلف عن بعضها اختلافاً عظيما، فهي تارة: معقصة، معقوفة، أنيقة. وهذا يبدو عليها أنها تحب النساء فوق وقبل كل شيء آخر!

وهي طوراً: مسننة، مهددة، حادة كالإبر...وهذه تميل للخمر والخيل والحرب!

وأخرى هي: غليظة، مترهلة، مفزعة...وهذه تخفي عادة طبعاً حسناً وطيبة عظيمة إلى درجة الضعف، ولطفاً لا يكاد يفرق عن الحياء والخجل

ثم أن ما أحبه أكثر من كل شيء في الشارب، إنه فرنسي وفرنسي بحت، فقد تحدر إلينا من أسلافنا الغالين وما انفك يتوارث حتى غدا سمة فارقة من سماتنا الوطنية

والشارب مهذار، شجاع، أنيق...فهو يرقص برشاقة في كأس النبيذ، ويعرف كيف يبتسم بظرف، بينا الفك الذي تستطيل لحيته، يبدو فظاً سمجاً في كل ما يأتيه من حركات!

وإليك حادثاً استنفذ جميع دموعي وجعلني أفتن بالشوارب على ثغور الرجال: حدث ذلك خلال الحرب الماضية، وكنت إذ ذاك فتاة صغيرة، واتفق ذات يوم أن جرت معركة شديدة على مقربة من قصر والدي، فأز الرصاص، وقصفت المدافع منذ الصباح، فلما هبط المساء دخل علينا قائد ألماني وأتخذ له مجلساً بيننا، ولم يلبث في اليوم التالي أن غادرنا...ثم جاء من أخبر والدي أن في الحقول كثيراً من القتلى، فأمر بجمعهم وجلبهم للقيام

بدفنهم فجمعوهم ومددوهم على طرفي شارع الصنوبر من أوله لآخره، ولما بدأت تنبعث منها روائح كريهة أخذ الجنود يهيلون عليهم التراب في انتظار الانتهاء من تهيئة الحفرة الكبرى التي تتسع لهم جميعاً، وهكذا لم يعد في الإمكان رؤية شيء من جثثهم، ما عدى رؤوسهم التي كانت تبدو للناظر كأنها تنبت من الأرض صفراء مثلها بعيونها المقفلة و....

فقد تملكتني رغبة قوية في أن أراهم، ولكني عندما أبصرت هذين الخطين الطويلين من الوجوه الفظيعة، شعرت كأنما أغمى علي...ثم رحت استعرض هذه الوجوه وأنا أحاول معرفة أصحابها

كانت بذلاتهم الرسمية مطمورة تحت أطباق الثرى، ومع ذلك فقد استطعت فجأة يا عزيزتي أن أعرف الفرنسيين من شواربهم! كان كثير منهم قد حلقوا لحاهم يوم المعركة كأنما أرادوا أن يكونوا أنيقين لآخر لحظة من حياتهم.. .! ولكن لحاهم قد عادت فنمت قليلاً، لأن اللحى تنمو - كما تعلمين - بعد الموت أيضاً...وكان يلوح على الآخرين إنهم لم يحلقوها منذ ثمانية أيام...ولكن

كلهم كانوا يتميزون بوضوح تام بالشوارب الفرنسية الفخورة التي خيل إلي أنها تقول لي: أيتها الفتاة! احذري أن تخلطي بيني وبين صديقي: إني من مواطنيك!

وقد بكيت يا عزيزتي، أوه بكيت كثيراً، أكثر بكثير مما لو لم أعرف هؤلاء القتلى بهذه الطريقة.. .

لماذا قصصت عليك ذلك...لا شك أنني مخطئة...فقد بعثت هذه الذكرى في نفسي كآبة شديدة، جعلتني عاجزة عن الثرثرة أكثر مما فعلت؛ فإلى اللقاء يا عزيزتي لوسيا، إني أقبلك قبلات حارة، وليحيى الشارب!!!

الجزائر تقرأ

على الحصان

ترجمة: كمال الحريري

كانوا في فقر وعوز، يزجون أيامهم تزجيه على راتب الزوج الضئيل. ولقد رزقوا ولدين من زواجهم، أما فقرهم فقد كان من نوع البؤس المخبوء الخجل. بؤس عائلة نبيلة، تريد أن تتمسك بتقاليدها وتأخذ مكانها بين أنداد الأشراف مهما كلفها الأمر. لقد نشأ هكتور (دي كربيلين) في الريف تحت كنفأبمدرس ولم تكن الأسرة في رغد من العيش وإن كانت تحافظ على مظاهرها النعمة. فحين بلغ (هكتور) العشرين من عمره، سعت له أسرته فأدخلته موظفا في وزارة البحرية. براتب 1500فرنك. فاصطدم الفتى بتلك الصخرة التي يصطدم بها كل من لم يعد في بكورة العمر لمعركة الحياة القاسية فهو يرى الوجود من خلال ضباب كثيف، ثم هو يجهل كل الجهل

وسائل العيشة وأساليب المناضلة والمقاومة لأنه لم يتزود منذ حداثته بمؤهلات كفاحية لمجابهة مرارة الحياة وشظف العيش، إنما ألقى به إلى هذا الوجود، وليس في يده آله أو سلاح لمنازلة حوادثه.

لقد كانت سنوات (هكتور) الثلاث الأولى في دائرة عمله مدعاة للتوبيخ فلقد ألف من عائلته لفيفا من الأصدقاء قليلي المال مثله، كانوا يحيون أوساط النبلاء، أي في الشوارع الحزينة من ضاحية (سانت جرمان) فربط هكتور معهم حلقة تعارف وصداقة. باغترابهم عن الحياة العصرية كان هؤلاء الأرستقراطيون المعوزون، يقطنون في تواضع الطوابق المرتفعة من المنازل والمساكن الهادئة. ومن أعلى إلى أسفل هذه المنازل كانت ألقاب المستأجرين الضخمة تتردد على كل لسان، ولكن يظهر ان النقود، كانت هي البضاعة المفقودة عندهم من الطابق الأول حتى السادس.

أما أعذارهم لهذا السكن المتطرف، فهي خطورة مراكزهم وتقدم حقوق عائلتهم على بقية الناس، واهتمامهم بعدم التسفل أمام العامة. وقد كانوا في سمو

المنزلة وعراقة الأصل. لقي هكتور (دي كريبلين) في هذا الوسط فتاة نبيلة فقيرة مثله، فعقد قرانه عليها، وفي خ أربعة أعوام كان لهما ولدان. مرت أربع سنين أخر، لم يعرف خلالها (هكتور) المسكين من ملاهي الشباب ومتع الحياة غير التنزه في حدائق الشانزليزه أيام الآحاد، أو حضور ملاعب التمثيل مرتين أو ثلاثا طيلة الشتاء وذلك بفضل تذاكر كان يجود بها عليه بعض زملائه وأصحابه. ولكن ها هو ذا الربيع يقبل فإذا مهمة يكلفه الرئيس بها، يتسلم بعد إنجازها من الرئيس منحة فوق العادة مقدارها ثلاثمائة فرنك. ولما حمل هكتور هذا المبلغ إلى امرأته قال: عزيزتي (هنريت) ينبغي أن نبهج أنفسنا بمسرة أو متعة تدخل على طفلينا السرور والبهجة وبعد جدال طويل قر الرأي على أن يصحب هكتور زوجه وابنيه إلى نزهة خلوية: وهتف هكتور: لعمري إن السير على الأقدام أمر مبتذل لا يليق؛ لهذا سوف نستأجر عربة نزهة لك وللطفلين وللوصيفة. أما أنا فسأحصل على جواد في بداءة ترويضه. فإن ركوبه يثير في نفسي نوعا من الفرح واللذة...وفي خلال أسبوع لم يكن حديث العائلة ليتناول أمرا غير النزهة المقبلة ومشروع امتطاء الحصان.

وعند المساء، حينأبهكتور من عمله، كان يتناول طفله البكر فيتخذ له من ركبتيه ممتطى كصهوة الجواد، ثم يقول له وهو يحركه ويقفزه.

هكذا سيعدوا ويركض بحصانه أبوك في الأحد المقبل وقت نزهتنا يا بني. فكان الطفل طوال النهار يهمز الكراسي ويشد عليها بساقيه، ثم يجرها حول الغرف قائلا:

– هو ذا في حالة الركوب. حتى لقد كانت الوصيفة ذاتها ترمق سيدها بعين الدهشة والإكبار حين تتخيله راكبا ظهر حصانه وسائرا بحذاء العربة. وفي أثناء وجبات الطعام كانت تصغي إليه وهو يتحدث عن فروسيته ومفاخره السابقة في ترويض الجياد. فهو ماهر في الركوب من الدرجة الأولى. ويكفي أن يكون الحصان العتيد الشموس بين ساقيه وتحته، إنه وقتذاك لن يخاف شماسه أو حرنه. ولقد كان يكرر لامرأته وهو يفرك كفيه ابتهاجا:

آه لو إنهم آجروني يوم الأحد المقبل حصانا شكسا غير مروض! إني سأكون إذن جد مبهج وستبصرين كيف

امتطيه وأعلوه. وإذا أحببت يا عزيزتي، فلتكن عودتنا من نزهتنا عن طريق (الشانزليزه) حين إياب المتنزهين من الغابة. وبما أن منظري على ظهر الجواد لن يكون مخجلا فلا باس أن نلتقي بأحد موظفي البحرية، خصوصا وإن التباهي بين الرؤساء شئ مستحب يدعو إلى الاحترام.

وفي اليوم الموعود، وصلت العربة والجواد في وقت واحد إلى منزل هكتور، فنزل فجأة ليفحص الحصان، ثم خاط لبنطلونه سيورا لركوبه، وأصلح سوطا للضرب اشتراه البارحة، ورفع بالتعاقب قوائم الحصان وراح يجس عنقه وخاصرتيه وثنيات قوائمه ثم تحسس بإصبعه كليتيه وفتح فمه، ونقب عن أسنانه فاحصا عمره. وحيث أن العائلة كانت تستعد للنزول فقد خطر له أن ينطلق به حول المنزل، ويطبق في ركوب هذا الجواد الكريم، ما عنده من نظريات في فن الركوب. ولما أخذوا جميعا أمكنتهم من العربة، راح يتأكد من متانة سيور السرج، ثم قفز إلى ظهر الجواد فسقط على ظهره سقوطا أرقص الحصان فأخذ يثب تحت هذا الحمل، وقد قام في نفسه أن يربك

راكبه. وتأثر هكتور من هذه الوثبات، فاجتهد أن يهدي من حدته فقال له: هيا. ولكن برفق يا صديقي، وعلى مهل. ولما ثابت للحصان سكينته هتف صائحا:

هل انتم مستعدون؟! فانطلقت الأصوات تقول نعم. وحينئذ قال آمرا هيا إلى الطريق...ثم ابتعدت القافلة الصغيرة شيئا فشيئا. ولكن الحصان أخذ يعلوا بصاحبه ويتهادى كأنما هو في حفل رقص، حتى لقد خيل لهكتور إنه موشك على السقوط عن ظهره. لهذا ثبت عينيه في الأرض وقد علت محياة صفرة الرعب. وكانت امرأته وهي تحمل أحد الطفلين إلى صدرها، والمربية وهي ترفع الثاني لا تفتران عن الهتاف في أذن الطفلين: ألا تنظران أباكما؟ وسكر الطفلان بنشوة النزهة وهزة الفرح واعتلال الهواء فكانا يصرخان ويزيطان زيطا أجفل الجواد المسكين فجرى يركض ويعدو. وبينما كان فرسه يجهد في كبح جماحه تدحرجت قبعته على الأرض. فتحتم على سائق المركبة أن ينزل من مقعده لالتقاطها ومناولتها لصاحبها وبحصول هكتور عليها بدا يوجه عن بعد امرأته:

– ألا تريدين إسكات الطفلين عن الصراخ والضجيج؟! إن صياحهما يغيظني...ونزلت القافلة فتناولت طعام الإفطار فوق العشب الخضل تحت ظل غابة من صندوق ملئ مؤنه وطعاما، وبالرغم من أن سائق العربة لم يقصر في الاعتناء بالجياد، كان هيكتور بين حين وآخر ينهض ليرى ما إذا كان جواده لا ينقصه حاجة. وحينئذ يأخذ في مداعبته في عنقه ثم يناوله بيده الخبز الأبيض وفطائر (الكاتو) اللذيذة وقطع السكر الفاخرة. وكان لا يفتأ يعلن أن جواه مسباق.. نعم إنه هزني وزلزلني من على صهوته أول الأمر، ولكنك أبصرت يا (هنريت) كيف استمسكت عليه، والآن وقد عرفني فلن يبدي أي حركة مطلقا. ورجعت العائلة من طريق (الشانليزه) كما كان مقررا. كانت الجادة حافلة بالعربات والمركبات وعلى جانبي الطريق ازدحمت الأرصفة بجموع المتنزهين، وكان سيلا دافقا من أشعة الشمس يسقط على هذه الخلائق، فيؤلق دهانات العربات ويلمع نعال الأفراس، ويضوي مقابض ومطارق الأبواب. وكأن جنون الحركة نشوة الحياة كانتا تحركان جماهير الناس وجماعات المتنزهين وأسراب الحيوانات. وما كاد حصان فكتور

(قوس النصر) حتى مسته حماسة جديدة. وبالرغم من كل محاولات راكبه لضبطه ورد جماحه أخذ ينطلق في الطريق كالسهم المنقذف. كانت العربة وراءه بعيدة عنه. فلما واجه هكتور قصر (باله لاندوستري) شاهد الجواد الطريق أمامه منفسحا كميدان السباق فانطلق يعدوا كالريح، وكانت امرأة عجوز في ثياب الخدمة تقطع الرصيف بخطوات بطيئة، فرأت نفسها بغتة في طريق حصان هكتور، وكان الجواد قد تنكب الجادة وتوسط الرصيف. ورأى هكتور نفسه عاجزا عن كبح حرن الجواد، فبدا يصرخ بملء صوته، هه...هولا. وراءك ولكن ربما كانت العجوز صماء، لأنها واصلت سيرها هادئة حتى اللحظة الأخيرة التي التطمت فيها بصدر الجواد، الذي كان مقذوفا كمحرك القطار. فتدحرجت العجوز عشر خطوات بعد أن أكبت ثلاث مرات على رأسها وبعد أن طار عنها صدار الخدمة وتعالت أصوات من الشارع: اقبضوا عليه، أمسكوه! فضاع رشد هكتور، وتمسك بظهر الجواد، ثم انطلق يقول: النجدة، الغوث. ولكن صدمة عنيفة ألقت به من سرج حصانه، فانقذف كعيار ناري من فوق رقبة الجواد. وإذا به يقع بين يدي ضابط

من ضباط الجيش هجم عليه كي يمسكه، وفي لحظة، تحلق حوله رهط من الناقمين، ولكن سيدا متقدما في السن يزدان صدره بكثير من الأوسمة المستديرة، ويعلو فمه شارب ابيض ضخم اغتاظ منه أكثر من الحاضرين فقال:

تبا لك! حين يكون المرء أخرق مثلك يقتضي أن يلزم منزله فلا يخرج ليقتل الناس على قارعة الطريق بعدم استطاعته قيادة جواده. وفي هذه اللحظة ظهر أربعة رجال يحملون المرأة العجوز، وكانت كأنها الميتة بوجهها الأصفر الكالح وقبعتها الملوثة بغبار الطريق قال الرجل المسن:

احملوا هذه المرأة إلى صيدلية إسعاف. وهيا بنا إلى ضابط الشرطة. ومشى هكتور في الطريق بين حارسين من الشرطة وثالث كان يقود حصانه بينما أسراب من الناس تتبعه. وفجأة ظهرت عربة زوجه فانقذفت منها في حين كانت الوصيفة كأنها فقددت صوابها والأطفال كانوا يجهشون بالعويل والصراخ. فشرح لهم هكتور الموقف، وقال: إنه دهس امرأة والأمر لا يهم مطلقا. فمضت

العائلة وقد جن جنونها من الرعب والقلق، وعند ضابط الشرطة كانت إفادة هكتور قصيرة. قال (للقوموسير) اسمه (هكتور دي كريبيه لين) موظف في وزارة البحرية. ثم تهيا القومسير لسماع تفاصيل الجريمة. وجاء شرطي نيط به الاستعلام عن حال العجوز يقول: إنها صحت من غشيتها وثابت لرشدها بيد إنها تشكوا آلاما مبرحة في جوفها. وهي امرأة في الخامسة والستين من سنها يدعونها مدام (سيمون) ولما تأكد هكتور. من عدم وفاة الضحية عاد إليه عازب الأمل. فتكفل أن يقوم بنفقات المريضة حتى يوم شفائها. ثم هرول عجلا إلى صيدلية الإسعاف، فابصر جمعا من الناس مرابطا حول الباب وكانت العجوز مستريحة إلى أريكة تشكو وتتوجع ويداها جامدتان ووجهها يعلو شحوب الموت. كان هناك طبيبان يفحصانهاأيضاً ولم يكن في جسمها عضو مكسور، ولكن يخاف من جرح داخلي. كلمها هكتور. هل تتألمين كثيرا؟ - أوه نعم وأين موضع ألمك؟

- إني لأشعر بمثل النار تتقد في معدتي، واقترب طبيب فقال:

- وإذن يا سيدي فأنت بطل الحادث؟!

- نعم يا سيدي.

- ينبغي لك إرسال هذه المرأة إلى مصحة من مصحات المرضى، وإني سأدلك على واحدة تتقبلها بستة فرنكات في اليوم. أتود أن أتولى هذه الخدمة؟ فاستطير قلب هكتور وشكر الطبيب، ثم انقلب إلى بيته مستريحا ناعم البال، وكانت زوجته تنتظره بين الآهات والعبرات، فهداها قائلا:

لا باس علينا من هذه المرأة الجريح إن صحتها في تحسن وبعد ثلاثة أيام لن يبقى في جسمها موضع شكوى أو ألم. لقد بعثت بها إلى مصحة فلا تقلقي من أجلها. وفي الغد، فور خروجه من دائرة عمله انطلق يستعلم أخبار مدام سيمون فألفاها تتهيأ لاحتساء مرق من الحساء، كثيرة الدهن. وهي جدا راضية قريرة العين. فقال لها: آه! أتراك بصحبة جيدة؟ فأجابت:

- أوه يا سيدي المسكين، إن حالي هي حالي لم تتغير، وإني لأشعر بأني صائرة إلى العدم ما دامت صحتي تتدهور. أما الطبيب فقد أعلن إنه من الواجب الانتظار فقد يعرض للمريضة حال من اشتباك العلة لا يعلمها

الطبيب. وانتظر الفتى ثلاثة أيام ثم عاد بعدها، فإذا المرأة العجوز بصفرة وجهها المضيئة وعينها الزائغة تأخذ في ترداد ألمها حين مشاهدته.

- إني لا أستطيع حتى التحرك يا سيدي المسكين، لا أقدر على ذلك حتى نهايتي الأخيرة. فعرت عظام هكتور رعشة، ومضى يستفهم الطبيب ورفع الطبيب يديه قائلاً:

- ماذا تريد منى يا سيدي؟ أنا نفسي لا أعلم عن حالها شيئاً. إنها تصرخ وتعوي حين يراد إجلاسها وإنهاضها، حتى إنه لا يمكننا تحريك مقعدها دون أن نعرض آذاننا لصرخاتها الداويات المزعجات، وإذن فإنا على تصديق ما تدعيه. لأني لست بداخلها ولا جوفها. وما دمت عاجزاً عن أن أجعلها تمشي وتسعى فليس من حقي أن أفترض أي وهم من ناحية مرضها. وكانت العجوز تسمع كلامه هادئة لا تتحرك، وفي عينيها الخبث والمكر.

ومرت ثمانية أيام، فخمسة عشر...فشهر، ولم تبارح مدام سيمون مقعدها المريح، لقد كانت تأكل من الصباح إلى المساء، وكانت تكتظ شحما ولحما. ثم إنها كانت تتحدث بسرور إلى بقية المرضى في المصحة، وكأنها

بتعودها على عدم الحركة والنهوض كانت تكتسب فرصة للاستجمام من عناء خمسة وستين عاما للخدمة، قضتها في صعود ونزول الادراج، وتهيئة الأفرشة والأسرة، وفي حمل قطع الفحم من طابق إلى طابق، وفي كنس الغرف وتنظيف الثياب.

وضاع رشاد هكتور، فكان يعودها كل يوم، وفي كل يوم كان يراها هادئة تعلن إليه:

– أواه أنى لا أستطيع الانتقال أو الحركة يا سيدي المسكين! لا أستطيع، لا أستطيع. وعند كل مساء كانت مدام دي كريبه لين تسال زوجها وهي فريسة القلق. ومدام سيمون؟ فيجيبها في خمود يائس:

– لا جديد عنها. فهي لم تتغير أبدا. وسرحت العائلة الوصيفة من الخدمةلأنراتبها أصبح عبئا باهظا عليها. ثم أخذت عائلة هكتور تمضي في الاقتصاد لأنالمنحة التي أخذها الزوج من رأيسه نفذت تماما وفي ذات يوم جمع هكتور أربعة أطباء التفوا حول سرير المريضة فتركتهم العليلة يجسونها ويفحصونها ولكن عينيها ألما كرتين ما كانتا لتحولان عنهم قال واحد منهم.

- يجب إجبارها على المشي فصرخت قائلة:

- لا أستطيع يا سادتي الكرماء لاأستطيع ولكنه قبضوا عليها وأجلسوها عنوة، ثم جروا بها عدة خطوات ولكنها تملصت من أذرعهم وتدحرجت على البلاط وهي تصرخ صرخات كانت من الشدة والإزعاج بحيث اضطروا إلى إعادتها ثانية لمقعدها في احتراس شديد وتشاور الأطباء فيما بينها فاستقر رأيهم على استحالة محاولتهم تحريكها..

ولما حمل هكتور هذا النبأ إلى زوجتهم تركت جسمها ينحط على مقعد تجمجم، وإذا فمن الخير أن نجلبها إلى منزلنا فإن ذلك يقلل من نفقتها، شيئا. وقفز هكتور.

- هنا عندنا في دارنا؟ أتفكرين في هذا؟! ولكنها أجابت وقد وطنت نفسها على المكروه، وفاضت من عينها الدموع:

- وماذا تريد أن نفعل غير هذا يا صديقي؟ إن الغلطة لم تكن غلطتي.

أرملة

ترجمة: ع. ص

كان ذلك في أوان الصيد في قصر بانفيل، والخريف مطير حزين، والأوراق المنتثرة ذابلة محمرة لا يسمع لها تقصف تحت الاقدام، بل تعطن في السكك بمدارج العجلات تحت شآبيب الذيم الهطالة.

وكانت الغابة وهي جرداء إلا قليلا تشبه الحمام من الرطوبة. فإذا أوغلت فيها تحت أفنان الدوح العالي يصفقه وابل المطر شملتك رائحة مخمة وهبوه ماء من العشب المخضل والأرض المبتلة.

والصيادون حناة الظهور يدبون تحت هذا الفيض الهتون، والكلاب محزونة ذيولها مرسلة، وشعرها ملتصق بآطالها، والغانيات الصائدات في أثواب الصوف المفصلة لاصقة مشربة بالبلل، وهم كل مساء يؤوبون

من الصيد أنضاء جسم وعقل أجمعين.

وفي البهو الكبير بعد العشاء يجتمعون إلى لعبة الورق متقارعين، من غير انبساط ولا لذة. وللريح في الخارج هبات مدوية تدفع في مصاريع الشبابيك المغلقة، وتبتدر دوارات الهواء فوق الأبراج فإذا هي من دوران كالخروف المدوم.

فأرادوا أن يسمروا بالحكايات كما تروى في الكتب، ولكن الله لم يفتح على واحد منهم بابتداع حكاية مسلية. ومضى الصيادون يقصون ما وقع لهم أثناء صيدهم بالبنادق وتقتيلهم للأرانب، وجعلت الغانيات يكدون أذهانهن ويتقصين في ثناياها فلا يجدن خيإلاً كخيال شهرزاد يسعفهن بحكاية من أمثال حكايات ألف ليلة. وكادوا يكفون عن الأحاديث. وكانت إحدى الغانيات تعبث خالية البال بيد عمتها العجوز، وهي عانس لم تتزوج، فلحظت خاتماً صغيراً من شعرات شقراء طالما وقع ناظرها عليه من غير أن تفكر لحظة فيه.

فسألتها وهي تديره في إصبعها بلطف: (ألا قلت لنا يا عمتي ما هذا الخاتم؟ لكأنه شعر غلام يافع.. .) فاحمر

وجه العانس ثم اصفر، وأجابت بصوت متهدج: (إن الأمر محزن جدا، محزن جدا، حتى لست أحب الكلام عنه. وكل ما في حياتي من الشقاء فهذا مصدره. لقد كنت في غرارة الشباب وقتئذ، وما زالت تلوعني الذكرى حتى يغلبني البكاء كلم خطرت في نفسي)

فتلهفوا إلى سماع الخبر، وأبت العمة ذلك عليهم، فما زالوا بها حتى رضيت في آخر الأمر:

(كثيراً ما سمعتموني أتحدث عن أسرة سانثيز، وقد انقرضت اليوم جميعا، وقد عرفت الثلاثة رجال الأخر من هذا البيت، والثلاثة ماتوا ميتة واحدة وهذه شعرات الأخير، وكان في الثالثة عشرة من عمره حين انتحر من اجلي. لقد يبدو لكم الخبر غريباً، أليس كذلك؟

آه. قد كانوا معشراً عجيباً من المجانين، أن شئتم هذه التسمية، ولكن مجانين ظرفاء، مجانين غرام. فهم جميعاً - أباً عن جد - أصحاب عواطف عارمة جامحة، تدفعهم من كيانهم كله دوافع قوية إلى ابعد السبحات وإلى التفاني وفرط التحمس، بل تذهب بهم إلى حد ارتكاب الجرائم؛ وهذا منهم بمقام فرط التدين في بعض

النفوس. وشتان في الطبيعة والمزاج بين أهل العبادة وبين رواد المجالس أزيار النساء، وكان يتردد في أوساطهم وبين ذوى رحمهم: (عشق كعشق بني سانثير)، وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيماهم. فكلهم شعره ذو خصل منسدلة على الجانبين ولحيته جعدة وعينان واسعتان ينفذ شعاعهما في نفسك فيبلبلك ويشغل خاطرك دون أن تعرف لذلك سبباً.

وكان جد الغلام - الذي رأيتم في إصبعي تذكاره الوحيد - له مغامرات عدة ومبارزات وسبى واستباحه للحريم. وقد هام بعدها وهو في نحو الخامسة والستين بابنة مؤاجر ضياعه. وأني لأذكرهما. وكانت شقراء شاحبة اللون، حسنة السمت والشارة، تتكلم متئدة وفي صوتها لين وترطيب، ونظرتها حلوة غاية في الحلاوة كأنها نظرة في صور الرسامين. فأخذها السيد الكهل عنده، وسرعان ما اصبح متيماً بها لا يطيق البعد عنها لحظة. وكانت ابنته وامرأة ابنة المقيمتان في القصر يجدان الأمر طبيعيا لطول ماقر الحب في تقاليد الأسرة. فالموضوع ما دام محور العشق فليس فيه ما تنكرانه وتتعجبان

منه. وإذادار الحديث أمامهما عن هوى قامت الموانع دون قضاء لباناته، أو عاشقين فسد ما بينهما، أو وقائع الانتقام من الخيانة أو نقض العهد قالتا معا في لهجة شجية: (له الله! أو (لها الله) شد ما قد تألم ولا ريب حتى بلغ الأمر هذا المبلغ!) ثم لم تزيدا على ذلك. وانهما لترقان لماسي الحب، ولا تنقمان قط على أصحابها ولو أجرموا.

إلا انه في ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شاب في عنفوان الشباب، هو المسيو دي جراديل فاختطف الفتاة. وظل المسيو سانشيز هادئا كان لم يحدث شئ. وإذا هم يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقاً بمرقد الكلاب وهى حوله وقد مات ابنه مثل هذه الميتة في فندق بباريس في أثناء رحلة سنه 1841، على اثر خيانة إحدى مغنيات الأوبرا له. وترك بعده ولدا في الثانية عشرة وأرملة هي أخت أمي. وجاءت السيدة ومعهاالصغير للمقام عندنا بأرضنا في بريتون. وكنتوقتئذ قد بلغت سبعة عشر ربيعاً.

ولا يسعكم أن تتصوروا كيف كان هذا الصغير سانشيز مدهش باكر النضوج قبل الأوان. وانه ليخيل إلى المرء أن جميع صفات أسلافه من رقة عاطفة وسبحات نفس

جائشة قد اجتمعت فيه ونزلت به، بهذا العقب الأخير. وكان على الدوام حالما، يتمشى وحيدا ساعات كاملة في ممشى رحيب بين أشجار الدردار الممتدة من القصر إلى الغابة. وكنت ارقب من نافذتي هذا الصبي الرقيق الوجدان وهو يسير وقور الخطى ويداه خلف ظهره مطرقاً إلى الأرض، وأحياناً يتوقف ويرفع طرفه كأنه يرى ويدرك ويحس أشياء ليست لمن كان في سنه.

وكثيراً ما كان يدعوني للخروجبعد العشاء في الليالي المقمرة قائلاً: (هلمي يا ابنة الخالة نحلم..) فنمضي سوياً إلى الروض. وكان يتوقف فجأة في الفجوات بين تفاريج الشجر حيث تطفو تلك الهفوة البيضاء مثل نديف القطن يبطن بها القمر فجوات الغاب. ويقول لي وهو يشد على يدي: (انظري إلى هذا انظري إلى هذا! ولكنك لا تفهمينى؛ اني لأحس ذلك. لو انك تفهمينني لكنا سعداء. لابد من الحب لمن شاء المعرفة). وكنت اضحك واقبله، اقبل هذا الصبي الذي يحبني مستهلكاً في حبي. وكان أيضاً بعد العشاء كثيراً ما يجلس على ركبتي أمي قائلاً لها: (إيه يا خالة، قصي علينا شئ من قصص الحب) فتحكي له

أمي على سبيل الدعابة أساطير أهل بيته كانوا وجميع ما وقع لآبائه من الوقائع الغرامية، والناس يرددون منها الألوف بعد الألوف من صحيحة ومفتراة. أن هؤلاء القوم؛ أضاعتهم شهرتهم، فقد كانوا يستجيشون لها ثم تملكهم العزة أي يكذبوا سمعة بيتهم وما اشتهر به.

وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات: لطيفها وفظيعها، وكان في بعض الأحيان يدق بيديه مرددا: (وأنا ايضاً، واني لاحق بالحب منهم جميعاً). ثم جعل يتحبب إليَّ متغزلاً في استحياء وحنان عميق كانا مثاراً للضحك لشدة غرابة الأمر. وكان كل صباح يقطف لي جني الزهر، وفي كل مساء قبل صعودي إلى مقصورتي يلثم يدي هامسا: (أنا أهواك!)

لقد اذنبت، وركبني اعظم الذنب. وما زلت على هذا نادمة باكية لا يرقا لي دمع. وأني لفي التكفير عن هذا طيلة حياتي، وقد بقيت بعده عانساً لا أتزوج، بل بقيت كالخطيبة المترملة، أجل أنا له الأرملة. كنت ألهو بهذا الحب الصبياني بل كنت اعمل على إذكائه. فكنت المرأة الخلوب ذات الدلال، وكأني إلى جنب رجل ألاعبه وأخاتله.

لقد فتنت هذا الغلام ودلهته بحبي. وكان الأمر عندي لعباً ومعابثة، وعند أمي وأمه تسلية وترويحا. قد كانت سنه اثنتي عشرة سنة، فتأملوا! من كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرام الدري! فكنت أقبله ما شاء، بل كنت أكتب رسائل العشق إليه وأقرئها أمي وأمه قبله؛ وكان يجيب عليها بكتب مسطورة كتب من نار، وقد احتفظت بها. وكان معتقداً أن صلتنا الغرامية كانت سراً مكتوماً، وكيف لا وهو يعتد نفسه رجلاً والأمر في عرفه الجد كل الجد. وقد غاب عنا انه من بني سانتيز.

ودامت الحال على هذا المنوال عاماً أو قرابة عام. وفي ذات مساء ونحن في الروضة خر جاثياً عند قدمي ولثم حاشية ثوبي في اندفاع المهتاج مردداً: (أنا أهواك، أهواك، أنا ميت في هواك. وإذا خنتني في يوم من الأيام، أسامعة أنت - إذاهجرتني إلى سواي فإني صانع مثلما صنع أبي.. .) وأردف في صوت عميق يقشعر له البدن: (أنت عليمة بما صنع).

ولما وجمت ولم أحر جواباً نهض وشب على أطراف قدميه ليبلغ إلى أذني - وكنت أفرع منه طولاً - ودعاني

باسمي، اسمي الأول، (جنفييف) بنغمة حلوة جميلة رقيقة شملتني منها قشعريرة سرت من فرعي إلى أخمص قدمي.

فغمغمت: (لنرجع، لنرجع إلى الدار). فلم ينبس بكلمة وسار في أثري، فلما هممنا بصعود درج السلم استوقفني قائلاً: (أتعرفين؟ إذاهجرتني فإني قاتل نفسي).

فعلمت هذه المرة أنني تماديت حيث لا يجب التمادي وتكلفت معه التحفظ. ولما أن كتب ذات يوم يعتب علي أجبته: (أنت اليوم اكبر من عبث المزاح واصغر من جد الحب. أني في الانتظار). وحسبتني بهذا قد أبرأت ذمتي.

وفي الخريف عهدوا به إلى مدرسة داخلية فلما عاد في الصيف التالي كنت مخطوبة. فأدرك الأمر في الحال، والتزم مدى ثمانية ايام هيئة المفكر الغارق في التفكير. فأهمني ذلك وساورني منه قلق شديد.

وفي صبيحة اليوم التاسع استيقظت من نومي فوقعت عيناي على رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب. فتناولتها وفتحتها وقرأت فيها: (لقد هجرتني، وأنت تعلمين ما قلته لك. لقد قضيت على نفسي بالموت. وأني

احب إلا يعثر بي أحد غيرك، فتعالي إلى الروض في نفس الموضع الذي قلت لك فيه أني أهواك وتطلعي في الفضاء) فكدت أن اجن. وأسرعت بارتداء ثيابي وهرولت على عجل اجري واجري وأكاد أتساقط إعياء إلى المكان المعين. وإذاقبعته الصغيرة المدرسية ملقاة على الأرض في الوحل. فقد كانت الليلة مطيرة. ورفعت طرفي فأبصرت شيئاً معلقاً يترجح بين الورق، وكان يوم ريح، ريح شديدة.

ولا ادري بعد ذلك ما صنعت. قد صرخت أول الأمر ولا ريب، ولعلني سقطت بعدها مغشياً علي، ثم عدوت هائمة على وجهي إلى القصر. وثبت إلى الرشد في فراشي وأمي إلى جانبي.

فخيل إليَّ أني رأيت ما رأيت كله في هذيان حلم فظيع. فغمغمت: (وهو، هو، جون تران؟) فلم يجبني أحد. إنها الحقيقة.

ولم اجرؤ على طلب رؤيته. فطلبت إليهم خصلة طويلة من شعره الأشقر. وهذي...وهذي...هي....).

ومدت العانس يدها الراجفة بحركة القانط المقطوع الرجاء وأخرجت منديلها ومخطت مرات ومسحت

عينيها الدامعتين واستأنفت تقول: (ونقضت الخطوبة دون إبداء سبب...وبقيت...العمر كله أرملة...أرملة... هذا الصبي ابن الثلاثة عشر ربيعا). ثم مال رأسها على صدرها وبكت طويلا بدموع الذكرى.

ولما انصرف المدعوون إلى حجراتهم للرقاد، مال صياد غليظ الجسم قد أفسدت عليه الحكاية صفوه إلى أذن جاره هامساً: إلا ترى أن رقة الوجدان إلى هذا الحد بلاء وشر بلاء.

«الجزائر تقرأ»

مبتور الساقين

ترجمة: كمال حمدي

جرت لي هذه الحادثة سنة 1882 وكنت مسافرا في القطار ومزمعا الانزواء بنفسي في إحدى مقاصيره، حين انفتح بابها وسمعت صوتا يقول لآخر:

- خذ حذرك من الزلل يا سيدي، فقد بلغنا ملتقى الخطوط (المقص) قم إن مرتقى القطار مرتفع

فأجابه صوت آخر:

- لا تخف يا لوران فسأعتمد على مقبض عكازي ثم ظهر لي رأس مستور بقبعة مستديرة ويدان تعلق بهما سيران من جلد، أخذتا تعتمدان وتستندان إلى جانبي باب القطار. ثم رفعتا بهوادة وبطئ جسما بديناً بعض الشيء سمعت لوقع أقدامه الخشبية نقرا على مرتقى القطار، وحين هم الرجل بالدخول إلى مقصورتي أبصرت نهاية

بنطلونه المتراخي فبرزت لي من خلاله رجل خشبية سوداء لم تلبث أن لحقت بها أختها، فعلمت أن رفيقي مبتور الساقين ثم برز لي من ورائه رجل آخر راح يقول له:

- هل أنت مرتاح في جلستك يا سيدي؟

- نعم يا ولدي

- وإذن فهاك صررك وهذا عكازك، وهنا أبصرت خادما تبدو في سحنته معارف جندي قديم يصعد الى صاحبنا حاملا له بين ذراعيه كدسة من أشياء ملفوفة بأوراق، بعضها أسود وبعضها أصفر، حتى إذا وضعها في رف القطار الواحدة بجانب الأخرى، قال لسيده:

كل شيء معد لك يا سيدي: ففي هذه الصرر الخمسة أشياء:

السكر والملبس، والدمية، والطبل، والبندقية، وأخيرا الفطيرة الدسمة

- حسن جدا يا ولدي

- أتمنى لك سفرا ميمونا يا سيدي

- شكرا (يا لوران) وأنا أتمنى لك صحة موفورة، ثم غادر الخادم القطار بعد أن أغلق على سيده باب المقصورة كان رفيقي في السفر في الثالثة والثلاثين من عمره تقريباً، على رغم أن شعره وخط أكثره الشيب، وكان حسن البزة والشارة، غليظ الشارب تبدو عليه الفراهة والقوة واكتناز اللحم، فبعد أن استقر ومسح جبينه وراح ينفث في الهواء دخان سيجاره رمقني بنظرة هادئة ثم قال:

- لعل دخان سيجاري يزعجك يا سيدي؟

- فقلت له: كلا، ولكن ما كدت أنطق حتى دهشت، ذلك أن هاتين العينين وذلك الصوت وحتى هذه السحنة لم تكن غريبة عني، نعم كنت أعرفها ولكن أين.. ومتى؟ وفي الحق قلد بدا لي أني لاقيت هذا الشاب وكلمته وضغطت على يديه ولكن ذلك كان بعيدا حتى لقد ضاع في ضباب كثيف يخيل للفكر معه أن يتلمس ذكريات الماضي ويتبعها كأنها الأطياف العابرة الهاربة، كان هو أيضاً يحدجني بنظره ويتفرس في وجهي متعرفاً كأنما داخله من التشكك بمعرفتي مثل ما داخلني، وتضايق نظرانا من هذه الملاقاة الملحة فاعترقا، على أنه لم تمض إلا ثوان

حتى عادا وتلاقيا ثانية بتأثير حب الكشف والاستطلاع، وابتدرته أنا قائلا:

– يا الله يا سيدي: ألا ترى أنه يحسن بنا بدلا من أن يسارق كل منا صاحبه النظر أن نبحث معا عن المكان والزمان اللذين تعارفنا فيهما أول مرة؟ فأجاب بلطف:

– إنك لمحق يا سيدي، وهنا سميت له نفسي قلت:

– إني أدعي القاضي هنري (بونكلير) فتردد برهة ثم قال بعين غائمة بضباب الذكرى وصوت من يحضر ذهنه كي يستذكر شيئاً عفى عليه الزمن:

– آه.. ذكرتك تماماً، فقد صادفتك في (بوانسل) وكان ذلك منذ اثني عشر عاما قبل الحرب المشئومة.. .

– نعم يا سيدي...أوه...وإذا فآنت اللوتنان غاليه؟

– نعم أنا بعيني، ثم أصبحت الكابتن (فاليه) قبيل اليوم الذي فقدت فيه ساقي الاثنتين بإصابة فظيعة من قنبلة حربية

وهنا حدق كل منا في صاحبه من جديد يعد هذا التعارف. وتمثل في خاطري هذه الساعة منظر ذلك

الشاب الجميل اللطيف الذي كان ملء العين والفؤاد بلباقته وخفته وجماله. ولكن وراء هذه الصورة الغامضة الملفوفة بضباب النسيان، كانت تطفو على ذاكرتي قصة لهذا الشاب، كنت أعرفها وأنسيتها الآن، ولكني لم أنس أنها قصة جذابة الحوادث مغرية رغم قصرها لأن الحب لعب على مسرحها. ثم أخذت ظلال النسيان تنحسر عن ذاكراتي شيئاً فشيئاً؛ وإذا بها تتضوء وتستنير بها المسالك، فيطالعني من خلال سطورها الممحوة وجه فتاة مليحة، وإذا باسمها يرن في سمعي ويجري على لساني: الآنسة (ماندال).. لقد ذكرت كل شيء الآن.. وفي الحق لقد كانت قصة غرام تلك التي نسيتها أولا. كانت تلك الفتاة تحب هذا الرجل حين التقت به، وكان الناس يتحدثون عن زواجهما المنتظر القريب الذي كان يفجر ينابيع الفرح والسعادة في قلب صاحبنا الضابط

وهنا صوبت بصري إلى الصرر الموضوعة إلى الرف فوق رأس الضابط الكسيح. فإذا بها تهتز وتضطرب من حركة القطار، وإذا بي كأني أسمع الآن صوت الخادم يقول لسيده:

كل شيء معد لك يا سيدي. ففي هذه الصرر الخمسة أشياء: السكر، والملبس، والبندقية، والطبل وأخيرا الفطيرة الدسمة. وتألقت في لحظة بخاطري رواية لهذا الكسيح الذي أراه أمامي: رواية تشبه الشبه كله جميع ما كنت قرأته في القصص أو رأيته في المسارح؛ وذلك إما أن يتزوج الخطيب ذو العاهة خطيبته السليمة أو لا. وإذن فإن هذا الضابط المبتور الساقين قد وجد خطيبته بعد الحرب فوهبت نفسها له رغم مصيبته بساقيه. تمثلت كل هذا جيدا في بساطة، ثم عرض لي فجأة افتراض آخر أشبه بالحق وأقرب إلى الواقع المنتظر أيكون الرجل قد تزوج من فتاته قبل الحرب وقبل الفاجعة الأليمة بساقيه؟ أتكون الصبية المسكينة احتسبت الله في مصيبتها فيه وخضعت لمشيئة القدر القاسي، فهي تستقبل مكرهة هذا الكسيح الذي غادرها ملء العين ملاحة وسلامة قبل الحرب، وآب إليها بساقين خشبيتين وجسم ناقص لا يتحرك إلا على عكازين. أتراه سعيدا أو متألما؟! وقامت في نفسي رغبة لا تقاوم في الاستعلام عن قصة زواجه والاستفسار على الأقل عن النقطة المهمة التي أستطيع أن أبصر على ضوئها ما يود هو إخفاءه عني أو ما لا يمكنه

الإفضاء به. ورحت أكلمه بأحاديث شتى، بينما عيناي مثبتتان على الصرر الملفوفة التي وضعها خادمة على رف القطار ثم استنتجت من محتوياتها أن له امرأة وطفلين: أما السكر والملبس فلامرأته، وأما الدمية فلطفلته، وأما الطبل والبندقية فلطفله، وأما الفطيرة الدسمة فله هو؛ وفجأة قلت له:

- لعلك أب لعائلة يا سيدي.

- كلا

فشعرت بشيء من الخجل والربكة لهذا السؤال كأني ارتكبت ما لا يتفق وحسن العشرة. لهذا عقبت:

- معذرة يا سيدي لقد ظننت ذلك مما سبق إلى سمعي من قول خادمك وإشارته إلى هذه اللعب. وأنت تعلم أن المرء لا يملك إذنه حتى ولو لم يرد ذلك. فافتر ثغره عن بسمة راضية ثم قال:

- وما قولك أني لست متزوجاً؟

وهنا بدت على دلائل الاستذكار والتأمل؛ ثم قلت فجأة:

- أوه! إن ما تقوله الحق، فحين تعرفت بك كنت عاقداً

خطبتك على الآنسة ماندال فيما أظن؟

– نعم يا سيدي إن ذكرتك جيدة جدا. فاجترأت وتابعت:

وأذكر أيضاً أني سمعت أن الآنسة ماندال خطيبتك تزوجت موسيو...موسيو.. فلفظ الضابط في سكون هذا الاسم:

– موسيو فلوريل، أليس كذلك؟

– نعم هو بعينه. وأذكر أيضاً أني سمعت في ذلك الحين قصة فاجعتك، ونظرت إليه من جانب عيني فإذا بالدم يتدفق في وجهه أحمر قانيا، ثم إذا به يجيبني في حمية ونشاط مثل من يدافع عن قضية ضاعت له سابقا وفرط في حقه فيها وهو يريد الآن تبرير موقفه فقال:

– لقد كان من أعظم الخطأ بل والألم أن يذكروا أمامي اسم خطيبتي (ماندال) بعد إذ أبت من الحرب بدون ساقين، ويا للأسف، لم يكن بوسعي أن أقبل دون ألم وتقريع ضمير أن تصبح (ماندال) امرأتي: أترى ذلك يكون ممكنا؟ حين يتزوج المرء يا صديقي لا يفعل ذلك كي يتباهى على الناس بامرأة جميلة فتانة! إنما يفعل

كي يعيش بجانبها ويتصل بها طوال الأيام والساعات والدقائق والثواني. فإذا كان الزوج مثلي كتلة شوهاء مبتورة فإنه بزواجه من فتاة ريانة الشباب يكون قد حكم عليها بالألم الممض وقسرها على حياته الناقصة المحطمة حتى الموت، أنا أفهم وأقدر بل وأعجب بجميع التضحيات، ولكن حين يكون لها حدود تنتهي إليها، لهذا فأنا أستنكر من نفسي أن تحرم فتاة جميلة نفسها لأجلي من كل ما تهفو إليه جوارحها ونفسها من سعادة وملاذ وأحلام للصبا وللجسد أيضا، كل ذلك كي يقال عنها إنها عفيفة ظريفة كريمة، ثم كيف أطلب منها هذا وأنا نفسي حين أسمع على أرض الدار وقع عكازي وأنا أمشي وأحجل، أنا نفسي حسن أسمع هذا الصوت الذي يشبه وقع أقدام البغال يجيش في نفسي الحنق فأود خنق خادمي، وهل تظن أنه يمكن أن يقبل الزوج من امرأة أن تتسامح في شيء هو نفسه لا يغتفره لنفسه، ثم أتعتقد وتتصور أن ساقي الخشبيتين هاتين جميلتان في النظر فاتنتان للعين؟ وسكت وسكت فما عساي مجيبه؟ إن كلامه الصدق فهل بوسعي أن ألومه أو أخطئه، ثم سألته فجأة:

- هل لمدام فلوريل خطيبتك المتزوجة أولاد؟!

- نعم، طفلة وصبيان، ولهؤلاء الأطفال ما احمل من لعب في هذه الصرر كهدية، إنها وزوجها طيبان، وكان القطار في هذا الوقت يصعد ملتقى خطوط (سان جرمان) ثم يمضي تحت الأنفاق المتعاقبة في المحطة، ثم يقف، وعزمت على تقديم ذراعي تكأة للضابط الكسيح كي يستعين عليها في النزول من القطار لولا أن يدين امتدتا من باب القطار المغلق لمساعدته

- نهارك سعيد يا فاليه، فأجاب صاحبي الضابط

- سعد نهارك (يا فلوريل)، وقد كان خلف الرجل امرأته الجميلة تبتسم له أيضاً وهي ترسل التحيات الحارة المستورة بقفازين، وبجانبها طفلة صغيرة كانت تطفر من الفرح والابتهاج بلقاء صاحبي الضابط وبجانبها الآخر صبيان صغيران كانا يتناولان بشغف ونهم الطبل والبندقية وقد برزا من طرفي الصرر التي تسلمها أبوهما فلوريل

وحين هبط الضابط إلى إفريز المحطة أسرع إليه الأطفال فعانقوه في محبة وألفة وشوق؛ ثم اتخذت العائلة

طريقها إلى المنزل، وفي أثناء الطريق أخذت الطفلة تسند بكفها اللينة الغضة مسند عكاز الضابط الكسيح وقد فاض وجهها بماء الابتهاج والطيبة والمحبة البريئة

الجزائر تقرأ

الاعتراف..

ترجمة: درية رستم

كانت مرجريت دي تيرول تعاني سكرة الموت وهي بعد في الواحدة والخمسين من سني حياتها؛ إلا أنها كانت تبدو لرائها على الأقل في الخامسة والستين...وراحت تتنفس وهي أشد أصفراراً من أدثرتها...تخالج جسدها رعشات هائلة...شاحبة الوجه...زائغة البصر، كما لو كان شيئاً هائلاً يلوح لها. وراحت شقيقتها الكبرى (سوزان) تنتحب، وهي تكبرها بعشر سنوات، وكانت جالسة بالقرب من السرير، وكان بالقرب من فراش المحتضرة منضدة عليها مفرش من فوقه شمعتان مشتعلتان.. .

كانتا في انتظار القس الذي كان من واجبه أن يقوم بمباركتها البركة الأخيرة ويقدم القربان المقدس. وكان للمسكن ذلك المنظر المشؤوم لحجرات الموتى، منظر الوداع الذي لا لقاء بعده...زجاجات الدواء على كل قطعة

من الأثاث...والملابس ملقاة في كل ناحية من نواحي الغرفة...مدفوعة بركلة قدم أو بضربة مكنسة...حتى الأرائك كانت في غير أماكنها المعدة لها. نعم فقد كان الموت المروع ثم مختبئاً منتظراً.. .

كانت قصة الشقيقتين تستدعي رحمة القلوب وإشفاقها...وراح القوم يروونها من زمان بعيد وهي بعد تستدر عبراتهم

كانت سوزان في ميعة صباها يحبها فتى إلى حد الجنون...وكانت تبادله الحب...وإذ لم يعد على زواجهما غير أيام معدودات مات (هنري دي سابير) فجأة.. .

ولقد كان يأس الفتاة قاتلاً حتى لقد أقسمت ألا تتزوج أبداً...والحق أنها برت بقسمها وعاشت عيشة العوانس، ولم تشذ عن عادتها مطلقاً

...وذات صباح جاءتها شقيقتها...شقيقتها الصغرى (مرجريت)، ولم تكن بعد قد تعدت الثانية عشرة وألقت بنفسها بين ذراعي شقيقتها الكبرى وقالت لها:

يا شقيقتي الكبرى...إنني لا أريد أن تكوني تعسة...لا

أريد أن تبكي طول حياتك..

أبداً لن أغادرك أبداً...وأما عن نفسي فلن أتزوج، وسأظل دائماً إلى جوارك دائماً...دائماً...واحتضنتها سوزان متأثرة بهذا الإخلاص من طفلة. ولكن الطفلة عملت بقولتها، وعلى الرغم من توسلات أبويها وتضرعات شقيقتها لم تشأ أن تتزوج...ولقد كانت جميلة بارعة الجمال، وردت كثيراً من الشبان الذين كانوا يلوحون أنهم يحبونها...لم تغادر أختها مطلقاً!

وعاشتا معاً طيلة إقامتهما دون أن تفترقا مرة واحدة. وظلتا متعاشرتين تربطهما عروة وثقى...إلا أن (مرجريت) كانت تبدو دائما حزينة مهمومة...أكبر حزنا من أختها، كما لو كان من المحتمل أن تكون تضحيتها الغالية قد قوضت حياتها، وراحت تدلف في طريق الشيخوخة بخطوات حثيثة، ووخط الشيب شعرها وهي لا تزال في الحلقة الثالثة من عمرها...دائماً تعاني، كما لو كان خطراً هائلاً يهددها.

وهاهي ذي الآن تموت قبل أختها! ولم تنفرج شفتاها عن كلمة منذ أربع وعشرين ساعة...فقط قالت عند

الومضات الأولى للفجر: هيا ابحثي يا أختاه عن القس؛ فإنني مشرفة على الهلاك.. .

وبقيت بعد ذلك مستلقية على ظهرها...تنتفض انتفاضاً مرتجفة الشفتين، كما لو كانت كلمات هائلة تصعد من أعماق قلبها، ثم تقف حائرة على شفتيها!

وراحت أختها، وقد أرمضها الألم، تبكي بحرقة من خلف السرير، وهي تردد:

يا مرجو.. يا مرجو التعسة...يا صغيرتي، وكانت دائماً تناديها بيا (صغيرتي)، كما كانت مرجريت تناديها دائماً بيا (أختي الكبرى).. .

وسمعنا وقع أقدام على الدرج...وفتح الباب ولاح طفل من الكنيسة، ومن خلفه قس كهل في لباسه الكهنوتي. وما إن وقع بصر المحتضرة عليه حتى انتفضت وفغرت فاها، وتمتمت بكلمات غير مفهومة...وتقدم منها الأب (سيمون) وتناول يدها وقبلها في وجنتها، وقال لها في صوت حلو النبرات:

- إن الله ليعفو عنك يا طفلتي...تشجعي...هاهي ذي

اللحظة قد دنت...تكلمي

...وتمتمت مرجريت التي راحت تنتفض من فرعها إلى قدمها...وراح مهادها يهتز بتأثير حركاتها العصبية لتجلسي يا شقيقتي الكبرى...ولتسمعي...وانحنى القس يأخذ بيد (سوزان) وهي قابعة كعادتها عند قدم السرير وأجلسها على الفوتيل وأخذ بكل يد من يديه يد كل من الشقيقتين، وقال:

رباه...لتبعث فيها القوة...ولتنزح عليها رحمتك.. .

وشاءت مرجريت أن تتكلم، فخرجت الكلمات من حلقها الواحد بعد الأخرى جزئية متقطعة

عفوك...عفوك يا أختاه...لتصفحي عني...آه لو أنك تعلمين كم كنت أشفق على نفسي من هذه اللحظة...طول حياتي...وتمتمت سوزان من بين عبراتها.. .

عم أصفح عنك يا صغيرتي...وقد منحتني كل شيء... وضحيت بكل ما تملكين...إنك ملاك

ولكن مرجريت قاطعتها قائلة:

خلي عنك، دعيني أتكلم ولا تقاطعيني...هذا مريع...

دعيني أقل كل شيء حتى النهاية...دون تتحركي... أصغي...إنك تذكرين...تذكرين هذي.. .

وانتفضت سوزان ونظرت إلى شقيقتها التي استطردت قائلة: يجب أن تنصتي لتفهمي...كنت في الثانية عشرة من عمري حياتي...في الثانية عشرة فقط وإنك لتذكرين ذلك جيداً أليس كذلك؟ ولقد كنت مدللة؛ كنت أعمل كل ما أريد عمله...أتذكرين جيداً كيف كانوا يدللونني؟ أصغي.. حينما جاء لأول مرة كان يحمل باقات نضيرة ونزل من فوق جواده أمام الدرج

ولكنه كان يحمل نبأ إلى والدي...إنك لتذكرين...أليس كذلك؟ لا تقولي شيئاً، أصغي...حينما رأيته...شعرت كأنني أسرت، فقد كان جميلاً، فاتن الجمال...وظللت واقفة في ناحية من الصالون طوال الوقت الذي كان يتكلم فيه

وزارنا مرات عدة، فكنت أحدق فيه، بكل عيني...من كل قلبي...فلقد كنت أكبر من سني!

وعاد بعد ذلك كثيراً...ولم أكن أفكر إلا فيه...وكنت أقول في صوت خافت:

هذي...هذي دي سامبير...وبعد فقد قيل إنه سيتزوج منك...فأصابني ألم.. .

أواه!

لشد ما تألمت...لشد ما تألمت!

وظللت ثلاث ليال متتاليات دون أن يزورني الكرى، وشرع يزورنا كل يوم، وبعد الظهر...بعد أن يتناول طبعاً الغداء...إنك لتذكرين...أليس كذلك؟ لا تقولي شيئاً...أصغي...كنت تعدين له (الفطير) الذي كان يحبه كثيراً من الدقيق...أواه...إنني لأعرف تماماً، كيف كنت تقومين بذلك!

وبعد أن كان يرشف قدحاً من الخمر...يقول: كم هو شهي! وإنك لتذكرين كيف كان يقول ذلك...لقد غدوت حقودة...حقودة...وكان يوم زواجكما...يقترب حتى لم يبق عليه إلا خمسة عشر يوماً...غدوت مجنونة...فكنت أقول فيما بيني وبين نفسي

سوف لا يتزوج من سوزان...كلا، لا أريد ذلك...إنه سيتزوج مني حينما أكبر. إنني لم أجد أبداً من أحبه هذا

الحب...ولكن...ذات مساء قبل عقد زواجكما بعشر أيام كنت تسيرين معه...في ضوء القمر...هناك تحت شجرة السرو...شجرة السرو السامقة...ضمك...ضمك...بين ذراعيه طويلاً...إنك لتذكرين...أليس كذلك؟...وكان ذلك محتملاً أول مرة.. .

لأنني رأيتك شاحبة الوجه حينما عدت إلى الصالون... ولقد استطعت أن أرى كل شيء، ذلك لأنني كنت واقفة هناك على الرصيف، فتملكني الغضب...حتى لو كان في استطاعتي آنئذ أن أقتلكما...لما ترددت في ذلك. قلت فيما بيني وبين نفسي: سوف لا يتزوج من سوزان أبداً، ولا من أية فتاة أخرى...غدوت تعسة...وفجأة وجدتني أندفع في طريق الحقد...الحقد المروع!

أتعلمين ما الذي فعلته إذن؟...أصغي. كنت رأيت البستاني يعد كرات صغيرة ليقتل بها الكلاب الضالة... فكان يسحق الزجاج بحجر...ثم يضع الزجاج المسحوق في كرة صغيرة من اللحم...أخذت من غرفة والدتي زجاجة صغيرة من زجاجات الدواء وجعلت أحطمها

وأخفيت الزجاج في جيبي وهو لا يعدو أن يكون

مسحوقاً لامعاً...وفي اليوم التالي...عند ما قمت كعادتك بعمل (الكعك)، شققتها بسكين ودسست الزجاج فيها... وأكل هنري منها ثلاثاً...وأكلت أنا واحدة...وألقيت بالست الباقية في الغدير...ولقد ماتت الأوزتان بعد ذلك بثلاثة أيام...إنك لتذكرين ذلك...أواه لا تقولي شيئاً...أصغي... أصغي...أنا وحدي التي لم تمت...ولكنني كنت دائماً مريضة مدنفة...أصغي، لقد مات...إنك لتذكرين جيداً... إنه ليس في ذلك شيء حتى الآن...بل إنه بعد ذلك...بعد ذلك بكثير غدت حياتي كلها مفعمة بالشقاء، كفنت أقول فيما بيني وبين نفسي: سوف لا أغادر شقيقتي، سوف أقول لها كل شئ...عندما يدهم أحدنا الموت

ولقد كنت أفكر دائماً في تلك اللحظة المرتقبة. تلك اللحظة التي أعترف لك فيها بكل شيء.. .

وهاهي ذي قد حانت! هذا مريع...أواه...يا شقيقتي الكبرى...كنت دائماً أفكر...في الصباح وفي المساء، في النهار وفي الليل...أنه يجب علي أن أكاشفك بكل شيء.. .

لشد ما تألمت! أنصتي.. الآن يتملكني الخوف...خوف مروع، أواه. أخشى أن أراه برهة...حينما أموت...أتدركين

ما أعني؟ أتدركين...هاأنذا وقد أشرفت قبلك على الهلاك، أتضرع إليك أن تصفحي عني، لأنني لا أستطيع أن أموت دون أن أتقدم بعفوك إليه.. .

اسأله أيها الأب أن يعفو عني.. أتضرع إليك...لا أريد أن أموت قبل ذلك

أخفت سوزان وجهها بين يديها، ولم تأت بحركة، وراحت تفكر في فتاها، وكيف كان من الممكن أن تتعهده بحبها طويلاً، وأية حياة جميلة تلك التي كانت لهما، وومض خياله لحظة في ذهنها ثم لم يلبث أن اختفى في الماضي البعيد...مات فتاها وشقيقتها العزيزان.. كم يمزق موتهما قلبها...أواه...صورته...صورته الحبيبة... إنها لتحتفظ بها في أعمق نفسها...ثم لم يبق شيء من حياتها كلها.. .

وفجأة قام القس، وصاح في صوت جهوري واضح:

يا آنسة سوزان، إن شقيقتك تحتضر

وفتحت سوزان ذراعيها، ووضح وجهها المخضل بالدموع واندفعت إلى شقيقتها وراحت تقبلها بكل قوتها

وهي تتمتم...إنني أعفو عنك، أعفو عنك يا صغيرتي!

الجزائر تقرأ

الحارس

ترجمة: محمد ناجي الطنطاوي

بعد أن فرغنا من تناول الغداء، كان قد بدأ صديق لنا قديم وهو السيد (بونيفاس) يسرد علينا حوادث ومخاطرات جرت له أثناء الصيد، وهو مشهور بالصيد وشرب الخمر، جلد، بشوش، ذو تفكير ناضج، وشعور حي، وله فلسفة تهكمية تظهر بها نفسيته عند المداعبة القارصة، ولا تظهر أبداً إذا تكلم بحزن. قال لنا فجاءة:

إنني أعرف حادثة صيد، أو بالأحرى مأساة صيد فريدة في بابها، لا تشبه أبداً الحوادث التي نعرفها، وإنني أعلم أني لم أقصها عليكم من قبل ولا على غيركم، لأنها لا تسلي أحداً، فهي ليست عاطفية، أريد أن أقول أنه ليس لها هذا النوع من اللذة التي تشوق السامع أو التي تسحره، أو التي تذهله، وهاكم الحادثة:

كان عمري آنئذ يناهز الخامسة والثلاثين، وكنت اصطاد

بقوة الشباب، وكنت قد اقتنيت في ذلك الوقت قطعة أرض منعزلة في إحدى الضواحي محاطة بالغابات وهي مأوى طيب للأرانب. ذهبت إليها مرة وقضيت فيها وحدي أربعة أيام أو خمسة لأنني لم أتمكن من اصطحاب أحد الأصدقاء. مكثت هناك كالحارس أو كشرطي متقاعد شجاع شديد البأس على باب قلعته، وكنت لا أخاف شيئاً. وكان بالقرب من أرضي بيت صغير منعزل أو بالأحرى كوخ يتألف من غرفتين سفليتين ومطبخ وغرفة للطعام، وغرفتين علويتين، إحداهما صغيرة لا تتسع لأكثر من سرير ومرآة وكرسي وهي التي استأجرتها، وكان يشغل الثانية (كافالييه) الهرم، وقد قال لي أنه وحيد في مسكنه. فأقمت عنده باسم مستعار ثم أسكن معه حفيده. وهو من الأشقياء تبلغ سنة أربعة عشر عاماً كان يذهب من حين إلى آخر إلى القرية التي تبعد ثلاثة كيلومترات وكان يساعد الكهل في أشغاله اليومية.

كان لهذا الشقي الطويل الهزيل المحدودب قليلا، شعراً أصفر اللون خفيف يشبه ريش الدجاجة المقصوص، حتى ان من يراه يحسبه أصلع، وله كذلك قدمان

ضخمتان ويدان جبارتان كيدي المارد، عينه حولاء قليلا، وكان إذا مشى لا يرى أحداً فهو إلى الحيوانات أقرب منه إلى الإنسان لأنه يشبه الثعلب.

كان ينام في ثقب صغير في أعلى الدرج وكان يدعى (ماريوس) ولكنه تخلى عنه أثناء إقامتي هناك لامرأة مسنة تدعى (سيليست) كان الكهل قد أتى بها لصنع الطعام.

قد علمتم الآن الأشخاص والمكان فهاكم الحادثة:

نحن في 15 أكتوبر سنة 1854 وهو التاريخ الذي لا أنساه أبداً. خرجت ذات صباح من روان ممتطياً صهوة جوادي يتبعني كلبي (بوك) ذو الصدر الواسع واللسان الحاد والأسنان القوية، التي تخترق الأشواك.

وكنت مردفاً حقيبة سفري وبندقيتي، وكان يوماً شديد البرد، عاصف الهواء رطبه، كثيف السحاب مسرعة، وكنت أرى من الشاطئ وادي السين الواسع الذي يمتد ماؤه حتى الأفق ماراً بأوكار الثعابين على ضفتيه، وكان النظر يمتد على الضفة اليمنى حتى يقف على الشواطئ البعيدة المستورة بالغابات، ثم اجتزت غابة رومار، مبطئاً

تارة ومهرولا أخرى حتى كنت في الساعة الخامسة تقريباً أمام البيت حيث كان الكهل والعجوز ينتظرانني.

وبعد عشر سنوات من نفس التاريخ ذهبت بنفس الهيئة وسلمت على نفس الوجوه بنفس الكلمات.

- أهلاً وسهلاً أيها السيد، كيف صحتك؟ ألا تزال جيدة؟

وكان الكهل لم يتغير منظره أبداً، فقد كان يقاوم الزمن كالشجرة المسنة، ولكن (سيليست) كانت قد تغيرت ملامحها منذ أربعة أعوام لا أكثر حتى أنني لم أعرفها لأول وهلة. غيرها الزمان ولكنها مازالت نشيطة. وكانت تمشي بجسمها الطويل منحنية إلى الأمام حتى أن رجليها كانتا تشكلان تقريباً زاوية قائمة.

وكانت هذه المرأة تبذل جهدها في عملها، وكانت تدهش عندما تراني وكانت تقول لي عند كل ذهاب:

- هل هذه هي المرة الأخيرة التي أراك فيها يا عزيزي؟

حقاً أن وداع هذه الخادمة محزن، وأن قنوطها أمام الموت الذي لا مفر منه كان يظهر جلياً في وجهها وعينيها حتى أن وداعها كان يؤلمني ويشعرني بحالة نفسية

غريبة.

نزلت عن ظهر الجواد إلى الأرض وكان الكهل الذي صافحته يقود الجواد إلى المأوى الصغير الذي يصلح أن يكون اصطبلا، ثم تبعت سيليست إلى المطبخ الذي يصلح أن يكون غرفة طعام.

ثم تبعنا الحارس، وقد لاحظت للوهلة الأولى أن وجهه ليس كالمعتاد فأن القلق والضيق يظهران عليه فقلت له:

- هل تريد أيها الشيخ أن يسير كل شيء في العالم حسب رغبتك؟ فقال بصوت هادئ:

- إن ما حدث لي اليوم، سبب لي هذا الضيق

فقلت: ماذا حدث لك أيها الكهل؟ هل لك أن تقص عليّ ذلك فأومأ برأسه سلباً، وقال:

- لا، لم يحن الوقت أيها السيد، إنني لا أريد أن يحصل مثل هذا بعد الآن، فألححت عليه، ولكنه رفض أن يبدأ بها قبل الغداء فعلمت أنها قصة مؤثرة. ثم قلت له قطعا للصمت:

- وهذه الجعبة؟ هل لنا فيها شيء؟

– فقال: نعم، ستجدون ما تشاءون، الحمد لله! لقد كان نصيبي اليوم وافراً.

قال هذه الكلمات بشجاعة، ولكنها شجاعة حزينة تبعث على الضحك، فان شاربيه الضخمين الرماديين كانا على وشك السقوط من فوق شفته.

ثم أخبرتهما فجاءة أنني لم أر الحفيد إلى الآن فقلت:

– وماريوس؟ أين هو؟ لماذا لا يظهر الآن؟

فاعترت الحارس رجفة خفيفة ثم التفت ألي بسرعة وقال:

– أريد إذن أن أقص عليك الآن أيها السيد كل شيء، أجل إنني أفضل ذلك، وأن الذي أطويه في سري يتعلق بماريوس.

فقلت أين هو الآن؟ فأجاب:

– إنه بالإسطبل يا سيدي، وأنا أنتظر الساعة التي يظهر بها، فقلت وماذا يصنع هناك؟ قال:

– اسمع أيها السيد...ثم تردد برهة وتغير صوته وارتجف وظهرت على وجهه تجاعيد الشيخوخة ثم قال:

– اسمع، لاحظت في هذا الشتاء أن هناك سارقاً في الغابة ولكنني لم أتمكن من القبض عليه. فقضيت هناك بضعة ليال ولكني لم أجد شيئاً. وفي هذه الأثناء أخذ يتزايد المسروق من الغابة؛ فانفجرت غيظاً وحنقاً وطفقت أبحث عن المجرم، ولكن عبثاً.

وفي أحد الايام؛ عندما كنت أنظف سروال ماريوس وجدت في جيبه أربعين قرشاً، فقلت في نفسي من أين لهذا الغلام بها؟

ولبثت ثمانية أيام أفكر، ثم رأيته يخرج كل يوم عندما أرجع إلى البيت لأستريح، فعندما أخذت أراقبه، ولكن دون أن يرتاب بي. وفي ذات صباح رأيته يستعد للذهاب فنهضت على خلاف عادتي وتبعته وليس أحد يجاريني أيها السيد في التتبع. ثم قبضت عليه. قبضت على ماريوس الذي كان يسرق من أرضك أيها السيد! نعم هو حفيد حارسك فغلى الدم في رأسي وفكرت في أن أقتله في مكانه بضربة من يدي، آه. نعم ضربته وقلت له أذهب، وأوعدته أنك عندما تكون هنا سأضربه مرة أخرى عقاباً له لأردعه، وقد أثر فيّ الحزن فهزلت كما ترى وأنك تعلم

عقاب مخالفة كهذه المخالفة. ولكن ماذا كنت تعمل غير هذا؟ أنه ليس له أب ولا أم وليس من أسرته إلا أنا؛ فكنت أراقبه ولا أقدر أن أطرده، على أني أنذرته أنه إذا عاد إلى هذا العمل فإن خاتمته سوف تكون على يدي. ولن أرحمه أبداً، فهل صنعت حسناً أيها السيد؟

فقلت له ماداً إليه يدي.

– نعم ما فعلت أيها الشيخ! إنك رجل شجاع.

فقال: شكراً أيها السيد، وسأذهب الآن فأدعوه اليك؛ فيجب أن تؤدبه أنت أيضاً ليرتدع.

وكنت أعلم أنه ليس من اللائق أن أرد هذا الشيخ عن قصده، فتركته يفعل ما يشاء، فذهب يبحث عن الشقي ثم رجع به يجره من أذنه.

وكنت جالساً على كرسي من القش بهيئة المستعد للحكم.

فظهر ماريوس أمامي أكبر سناً وأكثر قبحاً من السنة الفائتة، وظهرت يداه الكبيرتان ضخمتين، فدفعه عمه أمامي وقال بصوت المربي:

- اعتذر لصاحب الأرض!

فلم ينبس الغلام ببنت شفة

فقبض عليه عمه من إبطيه ورفعه عن الأرض وأخذ يضربه بقسوة اضطرتني إلى أن أستشفع له فأخذ الولد يصيح

- شكراً، شكراً أعدك أن.. .

ثم ألقاه الشيخ على الأرض وأخذ يضربه على كتفيه وركبته قائلا له: - اعتذر فقال الشقي أخيراً بصوت متهدج وطرف خاشع: أعتذر، وعندئذ رفعه عمه وأطلقه بركلة دحرجته فوق الأرض فنجا، ولم أعد أراه في المساء.

ولكن ظهر على الشيخ أنه تعب فقال: إن أخلاقه سيئة.

وقال ونحن على مائدة الغداء.

- إنني أحزن له أيها السيد، أنت لا تعلم كم يشجيني أمره.

فحاولت أن أسليه ولكن عبثاً.. .

ونمت باكراً استعداداً للصيد، وكان كلبي نائماً عند

رجل سريري حين أطفأت شمعتي.

استيقظت نصف الليل على صياح الكلب، ولاحظت أن غرفتي ملأى بالدخان، فقفزت من فراشي وأشعلت النور وهرولت نحو الباب ففتحته فدخل تيار من الدخان، وكان البيت يلتهب!

فأقفلت الباب بسرعة ولبست سروالي وأنزلت أولا كلبي من النافذة بواسطة حبل مربوط في سترتي، ثم ألقيت ثيابي وسكيني وبندقيتي ونزلت أخيراً بالواسطة نفسها.

وأخذت أصيح بكل قواي: كافالييه! أيها الشيخ! كافالييه! ولكن الشيخ لم يستيقظ، بل كان نائماً نوم الضباط العميق، وفي هذه الأثناء رأيت من أعلى النافذة أن الطابق الأسفل كالأتون المستعر، ولاحظت أنه مملوء بالتبن الذي أشتعل لتقوية الحريق.. وعاودت الصياح بشدة قائلاً: كافالييه.. ثم مر خاطر برأسي، فصوبت بندقيتي إلى النافذة وأطلقت رصاصتين فانكسرت الألواح الستة، وفي هذه المرة سمع الكهل ولما رأى النار اعتراه ذهول ودهش فصحت به:

بيتك يحترق، ألق نفسك من النافذة، اسرع، اسرع..

وكان الدخان يخرج من النوافذ السفلية، موازياً الحائط ثم يزحف إلى الشيخ ويحيط به، فألقى بنفسه فسقط على رجليه كالهرة. ثم مضى وقت، وصار السقف يفرقع وكان الدرج أشبه بمدخنة طويلة، وكان لسان النار طويل يتصاعد في الجو ويتمدد، وكانت الشرارات تتناثر حول البيت فقال الشيخ بذهول:

- كيف حصل هذا؟ فأجبت: وضعت النار في المطبخ

فقال: من تظن أنه وضعها؟ فقلت فجاءة: ماريوس! ففهم الشيخ وقال: آه ولأجل هذا لم يرجع بعد ولكن فكرة رهيبة خطرت لي فقلت: وسيليست، سيليست؟! فلم يجب، ولكن المنزل كان ينهار أمامنا كتلاً من الأحجار لامعة دامية، وكانت المرأة المسكينة قد صارت حجراً أحمر، من اللحم البشري.

إننا لم نسمع صياحاً، ولكن عندما انتقلت النار للسقف المجاور لسقفنا فكرت في جوادي وركض الشيخ ليخلصه.

وتمكن بمشقة من فتح باب الإسطبل فشاهد جسما خفيفاً سريعاً مر بين رجليه ولطمه في أنفه، وكان هذا ماريوس هارباً بكل قواه، فنهض الشيخ ليقبض على

الشقي، ولكنه عرف انه لا يمكنه اللحاق به، وأصابه جنون شديد، ولما رأى انه لا يستطيع القبض عليه تناول بندقيتي الموضوعة على الأرض قريباً منه فوضعها تحت إبطه قبل أن تبدو مني حركة واحدة، وأطلقها وهو لا يعرف أن فيها رصاصات عديدة، فأصيب الهارب في ظهره وسقط على الأرض مضرجاً بدمه، فأخذ ينكث الأرض بيديه ورجليه كأنه يريد أن يركض على أربع كالأرانب الجريحة حين ترى الصياد قادماً إليها.

فتألمت، وأخذ الغلام ينازع ثم قضى قبل أن ينطفئ الحريق دون أن يقول كلمة.

وكان كافالييه واقفاً بقميصه وساقيه العاريتين، لا يتحرك وعندما أتى رجال القرية حملوا حارسي وهو كالمجنون.

ذهبت إلى المحكمة شاهداً وسردت الحادث بتفاصيله دون أن أبدل شيئاً، فبرئ، كافالييه، ولكنه ترك البلدة في اليوم نفسه ولم أعد أراه. هذه قصة صيدي أيها السادة.!

”

كانوا لا يعرفون مقدار العذاب الذي تعانيه هذه الفتاة. فقد كانت قليلة الكلام لا تبتسم مطلقاً. حتى أهلها، كانوا يضيقون بها كأنهم يحقدون عليها من جراء تلك الهفوة الشنعاء. إن الرجل الفاضل لا يمد يده بمحض إرادته إلى المجرم الذي أُفرج عنه، ولن كان ابنه، أليس كذلك؟ وعامل السيد والسيدة فونتانل ابنتهما كأنها من طريدات السجون.

جميع كتبنا متوفرة للشراء عبر
DZREADS.COM
الجزائر تقرأ
«الجزائر تقرأ»